CHARLES DICKENS

روايات

تشارلز ديكنز

صرصار الليل على الموقد



ترجمة: رولا حسام النعيمي



صرصار الليل على الموقد





الأهليّة للنشر والتوزيع
e - mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

صرصار الليل على الموقد / رواية إنجليزيّة
تشارلز ديكنز / بريطانية
ترجمة: رولا حسام النعيمي / الأردنّ
مراجعة وتدقيق: محمّد سعيد / الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2019

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف 95297109 7 00962
محمد سيف ®

◆

الصفّ الضوئيّ: إيمان زكريّا خطّاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 6589 - 09 - 909 - 3



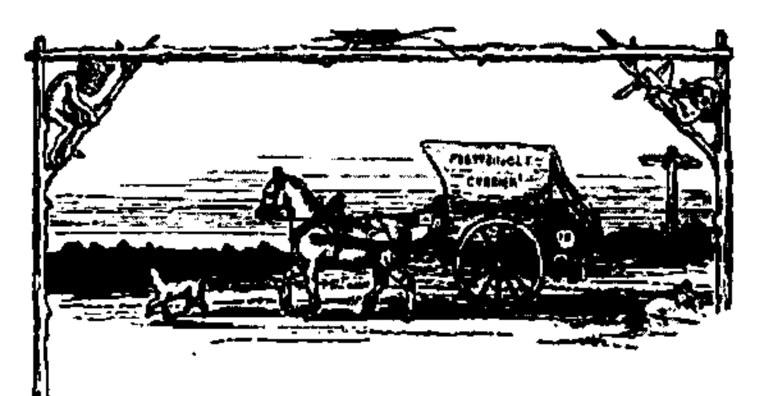
مكتبة | 831
سُر مَن قرأ

تشارلز ديكنز

صرصار الليل على الموقد

ترجمة: رولا حسام النعيمي
مراجعة وتدقيق: محمد سعيد





التغريدة الأولى

٢

أنا سأخبرك بمن بدأ الأمر أولاً، إنّها الغلاية! لا تخبرني بما قالته لك السّيدة بيري بينغل فأنا أعلم منها بما حصل في ذلك اليوم، بالإضافة إلى أنّك تعلم بأنّ السّيدة بيري بينغل تترك الأمور تَتفاقم حتى النهاية ثم تَتَحدَّث، وإنّها حين تَتَحدّث لا تُخبرك حقاً بمن بدأ الأمر أو أدى إليه؛ إنّها تبقى صامتة على الرّغم من أنّها تملك الكثير لتقوله. سأخبرك بالحقيقة، أجزم لك بأنّ من بدأ الأمر هي الغلاية. أتذكر بأنّ خمس دقائق كانت قد مضت وأنا أنظر إلى السّاعة الهولندية المصنوعة بدقة حتى سمعت صوت صفير صرصار الليل.

لم تكن السّاعة قد انتهت من ضرب دقاتها، تلك الساعة يستند فوقها صانع التبن الذي يتأرجح يميناً ويساراً فوق ذلك القصر البربري المُهيب، لم يكن قد جَزّ نصف فدّان من العشب الوهمي قبل أنْ يأتي صرصار الليل وينضم إليه!

أنا لست إيجابياً بطبيعتي والكل يعلم هذا. لن أجازف وأطرح رأيي الذي هو في الأصل ضد رأي السّيدة بيري بينغل ما لم أكن متأكداً تماماً؛ فلن أجازف على حساب أي شيءٍ آخر.

في الواقع، فأنا لست من الأشخاص الذين يحثّهم أي شيء، ولكن بالنسبة إلى هذا الأمر فهذه مسألةٌ حقيقية، والحقيقة هي أنّ الغلاية هي من بدأت بالأمر. على الأقل قبل خمس دقائق من إعلان الصرصار عن حضوره. ستناقضني بشأن هذا! إذن سأزيدها لتصبح عشر دقائق.

دعني أخبرك بما حصل بالفعل. أعلم أنني تحدثت كثيراً وأنني تأخرت عن قول الحقيقة بشأن ما حصل وأنّه كان يجدر بي أن

أبداً بذكر ما حصل منذ البداية وأن آخذ هذا الأمر بعين الاعتبار؛ ولكن إذا كنتُ بدأتُ منذ البداية فكيف أستطيع أنْ أبدأ دون أنْ أتحدث عن الغلاية ؟

بدأ الأمر كما لو أنّه نوعٌ من المباراة أو استعراض مواهب بين الغلاية وصرصار الليل، كل واحدٍ منهما يحاول أنْ يفرض حضوره، وهذا ما آل بالأمر إلى هذه النقطة.

كان ذلك اليومُ بارداً جداً، خرجت السّيدة بيري بينغل في وقت الشفق تَنقر بقبقابها فوق الحجارة الرطبة وتطبع علاماتٍ لا تُعدّ ولا تُحصى في أرجاء الفناء حتى وصلت إلى برميل المياه لتملأ الغلاية. في طريق عودتها لم تكن تهتم بطبع تلك العلامات مجدداً فلم تترك ذلك الأثر الذي يمكن اقتفاؤه بسهولة. زوج القبقاب الذي ترتديه السّيدة بيري بينغل كان قد أبرَم معها صفقة جيدة؛ فبسبب قِصَر قامتها، فكانت تحتاج إلى داعمٍ لها كي تُبرز طُولها، وليس هنالك أفضل من القبقاب لفعل ذلك. دَخلت السّيدة بيري بينغل المنزل ثم وضعت الغلاية على النار، وفي لحظة من اللحظات خلال عملها، فإنّها فقدت صوابها أو بالأحرى ضلّت نَفْسَها لحظاتٍ بسبب كون الماء بارداً بشكل لا يُحتمل، وبسبب تلك اللزوجة الموحلة والمليئة بالزّغب والطين المتجمع على قبقابها حتى شمل الحلقات التي لطخت يدي السّيدة بيري بينغل، حتى إنّه وسّخ جواربها أيضاً. كان الأمر بالنسبة إلى السّيدة بيري بينغل كما لو أنّها تقف في مكان غير مكانها، تستند إلى قدميها اللتين بدأتا الشّعور بالإرهاق ثم في لحظة تبدأ بالانهيار ويصبح التحمل صعباً عليها.

وإلى جانب كل هذا، فقد كانت الغلاية عنيفة جداً وعنيدة. لم تكن تقبل بأنْ يتم تعديلها بأي شكلٍ من الأشكال، فهي تميل إلى أي جهة تروق لها. حتى مقبضها كان عنيداً جداً فتراه في بعض الأحيان يميل كأنّه في حالة سُكْرٍ شديد ولا يقبل الاعتدال ويقترب بغباء ناحية الموقد. كانت الغلاية عدوانية، تُصَفِّر وتبصقُ على النار في محاولة جاهدة للتخلص من كل ما حولها. حتى الغطاء كان متعاوناً مع الغلاية ومع مقبضها؛ يقاوم يدي السّيدة بيري بينغل، تارةً تراه ينقلب رأساً على عقب بحركاتٍ بارعة تستحقّ أفضل جائزة، وتارةً أخرى تراه يُساعد في رَشق المياه عليها، حتى إنّه كاد من فرط سقوطه يُنافس هيكل جورج الملكي الفخم في مقاومته للسقوط في الماء. بقي الغطاء يُصارع يدي السّيدة بيري بينغل بشدة ولكنها استطاعت أخيراً أنْ تلتقطه وتصلح وضعيته. ما زالت الغلاية تبدو متجهمة وخشنة، حتى ذلك الحين كانت السّيدة بيري بينغل لا تزال تمسك بالمقبض كما لو أنّها تعلم بألاعيبه. وجّهت الغلايةُ صنبورها بجوٍّ من التحدي نحو السّيدة بيري بينغل وكأنّها تقول لها: «لن يرغمني شيء على الغليان، لا شيء يستطيع إجباري على هذا الفعل!».

هدأت السّيدة بيري بينغل، واستعادت حسّ فكاهتها، فطرقت يديها السمينتين إحداهما بالأخرى وجلست مقابل الغلاية وهي تضحك. في تلك الأثناء، ارتفعت النيران وأرسلت وميضاً على رَجُل التبن الذي يقف فوق الساعة كما لو أنّه ليس هنالك مَنْ هو أعلى منه في تلك القمة، يقف شامخاً فوق ذلك القصر البربري المَهيب.

لا يزال الرّجل يتحرك فوق الساعة، ومع ذلك فهو يوازن عمله بكل انتظام. لكن عندما يحين الوقت وتضرب الساعة جدرانها

فكان الجميع يخافون النَّظر إليها، خصوصاً عندما يظهر طائر الوقواق من باب القصر الملكي ويدق ست دقاتٍ متتالية؛ كان يهز عرش رجل التبن وكل ما حوله كأنّه وحشٌ ما، مما يجعل قدميه تهتزّان رُعباً من شدة الخوف. لم يهدأ تماماً إلى أنْ هدأت أسفله الضوضاء والطنين والهيجان العنيف للأوتار والأحبال، حينذاك عاد إلى طبيعته. لم يكن رجل التبن ليذهَلَ بسهولة ولكن تلك الجماجم العظمية المُلتفة حول السّاعة كانت بارزةً جداً ومقلقة للعين. أكثر ما أتعَجَّبُ منه حقاً أنّه كيف لهؤلاء الهولنديين أنْ يصنعوا مثل هذه الساعات ويفضلونها على غيرها من الأشكال. ساد اعتقادٌ شائع بين الكثيرين هو أنّ شعب هولندا يحب إطلاق العَنان لنفسه في اختراعاته حتى وصل بهم الأمر إلى لباسهم غريب الشكل، وأنّهم دون غيرهم يحبون أنْ يُبرِزُوا صناعتهم المحلية بأي شكل من الأشكال، وعُرِفوا أيضاً بحبهم لصنع ساعاتٍ على هيئةٍ بالِيَة ورثّة جداً. هذا ما قيل عنهم بأي حال.

والآن بعد كل هذا الوقت بدأت الغلاية في العمل، الآن تحديداً بدأت تَسمع صوت موسيقى وبدأت تَحصل على إيقاع لا يمكن كَبته، تنغمس في أصواتٍ كالصَّهيل كما لو أنّها لم تُسمع من قبل، كما لو أنّها تألفت على يد أمهر الموسيقيين. والآن، بعد كبت المشاعر بحرارة وصعوبة، وتحمل كل تلك المعاناة، طَرَحَت الغلايةُ الكآبة جانباً وجرت سيول من الموسيقى الدافئة، الآن وبعد كل هذا أظهَرَتْ ألحاناً أعذب من العندليب، كما لم تَفعل من قبل.

ألم يكن هذا سهلاً، على ما أعتقد! فليبارك الله أيها القارئ، أظن أنّك قد فهمت هذه القصة أكثر من أي قصةٍ أخرى قرأتها من قبل. فلنعد إلى الغلاية الآن؛ مع أنفاسها الدافئة والمتصاعدة إلى

الأعلى كالسحابة الخفيفة، التفّت حول المدخنة بأناقة وكأنّها تصعد بروحها إلى جنتها الخاصة بكل تلك القوة المُبهجة والمرحة، حتى كاد جسدها الحديدي يَذبُل على النار. أما الغطاء فقد كان يستعرض مهاراته الفنية في الرقص والتمايل فوقها، ثم بدأ يتحرك بسرعة محدثاً قرقعةً كبيرة، كأنّه أصمُ وأبكم لا يعلم ما الفائدة من عمله.

هذه الأغنية المتناسقة التي تغنيها الغلاية كانت كما لو أنّها ترحب بأحدٍ ما قادم، وفي نفس اللحظة دخل شخصٌ ما من الباب إلى داخل هذا المنزل الدافئ وتلك النيران المتموجة. ليس هنالك شكٌّ في أنّه لا أحد يقاوم هذا الجو العَتيق في مثل هذا الطقس البارد. كانت السّيدة بيري بينغل تفكر في ذلك أيضاً وهي جالسة أمام الموقد. تلك الليلة كانت مظلمة وباردة، مع غناء الغلاية وأوراق الشّجر الذابل منتشر في كل مكان. كان كل شيء مظلماً وضبابيّاً، وفي الأسفل ترى الأرض موحلةً وطينية. لربما كان هنالك شيءٌ واحد مبهج في وسط كل هذا اليأس والظلام المجتمعين معاً، فحين تنظر إلى الخارج ترى وَهَجاً أحمرَ قرمزياً ولكنه بهيئةٍ غاضبة، يتراءى لكَ بأنّ الشّمس والرّياح قد اجتمعتا معاً لصب جام غضبهما على الغيوم لكونها المذنبة بارتكاب مثل هذا الطقس الموحش. وإذا أمعنت النّظر أكثر تستطيع أنْ ترى امتداد السّماء السّوداء يطغى على البلاد المفتوحة، وإذا نظرت إلى أصابع المارة ترى الصّقيع على أصابعهم. وعلى الأرصفة تستطيع أنْ ترى ذوبان الجليد، حيث يتحول إلى ماء، والماء لا تستطيع أنْ تراه يتحول إلى شيء آخر، هو فقط يختفي عن الأرض بين الشقوق وفي الأزقة وتحت الأرصفة. في ظل كل هذه الأمور تستطيع سماع أمرٍ آخر، شيء قادم نحوك، إنّه قادم، إنّه قادم!

إنْ كنت توّاقاً إلى معرفة مَن أتى فسأخبرك، إنّه الصرصار! أتى وقد أحدث ضجة معلناً قدومه، بصوته العالي الذي يفوق حجمه بكثير كان يغني وكأنّه يقود جوقة. غريبٌ أمر هذا الصرصار، صوته المذهل لا يصف حجمه أبداً مقارنة مع الغلاية (صوتها أقل ما يكون بالنسبة إلى حجمها!) دخل بقوةٍ كبيرة متحدياً الغلاية بغنائه، انطلق كأنّه رصاصة قُذفت من بندقية وسقطت في كل مكان بقوة متناثرةً إلى خمسين قطعة، لا أستغرب فعله ذلك ففي كل مرة يأتي لينافس الغلاية فهو يعمل جاهداً ليسقطها أرضاً، لذا فهي نتيجة طبيعية وحتمية.

كانت الغلاية في تلك اللحظة في آخر مرحلة من غنائها الفردي، لا يمكنني القول إلا أنّها مثابرة مع حماسٍ شديد أخذ يزداد مع الوقت؛ ولكن الصرصار لم يسمح لها بمقاطعته فأكمل عزفه وأبقى عليه. يا إلهي، غناؤه رائع! صوته حادّ، وثاقب وصاخب يُدوّي في كل أرجاء المنزل، وبدا في الظلام كأنّه نجم يومض. بدا في صوته كلما علا رعشة لا توصف، يبدو كأنّه يحتاج إلى استراحة، ولكن من فرط حماسه فتراه قفز فجأةً من مكانه وكأنّ ساقيه هما اللّتان تحركانه. سار الأمر على ما يرام، ما زال التحدي قائماً على الرغم من أنّ العبء ثقيل ولكن تستطيع أنْ ترى بأنّ الأصوات تتعالى، لا يزالان، الغلّاية والصرصار، يغنيان بروحٍ عالية.

المُشَاهِدة الصّغيرة، لقد كانت عادلة في حكمها على المتنافسَيْن. جلست الفتاة وأضاءت شمعة وألقت نظرة على رَجُل التبن المُستند إلى قمة الساعة. لم تلبث أن وقفت تنظر خلال النافذة ولكنها لم ترَ شيئاً سوى الظلام وانعكاس وجهها في الزّجاج. في رأيي إنّ الأمر

(وهو كذلك بالنسبة إليك على ما أعتقد) أنّها أطالت النّظر خلال الزجاج. في مثل هذه الليالي لا يمكن لأحدٍ أنْ يتصور ما يمكن أنْ يراه فِي هذا الظلام لذا يُستحبّ ألا ينظر أبداً. عادت إلى مقعدها وجلست والصرصار والغلاية على وتيرتيْهما في التحدي، ولكن بدا على صوتيهما الغضب هذه المرة. بالنسبة إلى الغلاية فإنّ جانبها الضعيف قد بدأ بالظهور، فبدا أنّها لا تستطيع التحمل أكثر ولا تعلم متى تستطيع التغلب على الصرصار.

على الرّغم من أنّ الموضوع قد يبدو مزعجاً الوهلة الأولى إلا أنك كنت ستشعر ببعض الإثارة لو أنك كنت تستمع إليهما. غَرِّدْ، غَرِّدْ، غَرِّدْ! تبدو كأنّها لعبة الصرصار المفضلة، إنّه يسبق الغلاية بميل. تابع الغلاية، همهمة، همهمة، همهمة! وكأنّ الغلاية تقول له: سألحق بك، ليست المسافة كبيرة بيننا. وينطلق الصرصار بقوة أكبر، غَرِّدْ، غَرِّدْ، غَرِّدْ! وانتقل إلى الزاوية. همهمة، همهمة، همهمة! سأبغضكَ بطريقتي أيها الصرصار، لن أستسلم مهما حدث. غرّد، غرّد، غرّد! يُطرب الصرصار بطريقته الخاصة والعذبة. همهمة، همهمة، همهمة! لا زالت الغلاية ثابتة وصامدة. غرّد، غرّد، غرّد! الصرصار في طريقه إلى إنهاء اللعبة. همهمة، همهمة، همهمة! لن تنتهي الغلاية عند هذا الحد. ولا يزالان يتصارعان وازداد تشابكهما معاً في هذه اللعبة التي لا مفرّ منها، لم ينتظرا حتى يكمل أحدهما؛ تداخلا، لم تعد تعرف هل الغلاية تغرد أم الصرصار يهمهم، أم أنّهما يغردان معاً ويهمهان معاً، لا بد من حضور عقل عبقري أكثر مني ومنك لإخبارنا أيها الصحيح. ولكن لم يكن هنالك أي شك في أنّ الغلاية والصرصار في نفس اللحظة، وفي نفس النغمة، وببعض القوة

والدّمج، أرسل كل واحدٍ منهما أغنية مليئة بالحيوية والراحة التي تدفقت خلال الغرفة مرسلةً شعاعاً إلى الشّمعة التي انعكس ظلّها على النّافذة، ولربما على طول الطريق الطويل. هذا الضوء قد عُكس على شخص ما في لحظة ابتعاده عن الظلام وسيره نحو الإضاءة ثم قال: «مرحباً بك يا صديقي القديم! أهلاً بك في المنزل يا بنيّ!».



هنا، في هذه المرحلة وصلت المسابقة إلى نهايتها، فقد تعرضت الغلاية للضرب المبرح والخسارة الجسيمة بسبب ارتفاعها عن النار. ثم توجهت السّيدة بيري بينغل إلى الباب حين سمعت صوت عجلات عربة وصهيل حصان، وصوت رجل مع عواء كلاب في الأنحاء، ومع الظهور المفاجئ والغامض لطفل واقتراب رجل منها.

من أين أتى هذا الطفل، وكيف أصبح بلمح البصر في ذراعي السّيدة بيري بينغل وكيف استطاعت أنْ تُسيطر عليه! لا أحد يعلم. لكن كان هناك طفلٌ حيّ بين ذراعي السّيدة بيري بينغل، وحالة ليست بهيّنة من الكبرياء الذي تَمَلَّكها عندما انحنت نحو النيران بجانب رجلٍ ضخم، متين، أطول منها بكثير وأقدم منها (أي أكبر منها)، والذي انحنى ليقبّلها؛ قبلة تستحق كل هذا العناء.

قالت السّيدة بيري بينغل: «أوه يا إلهي، جون! ما حالتك أنت هنا في هذا الطقس المروّع!»

لقد كان وضعه أسوأ مما يمكن لأحدٍ أنْ يتصوره أو ينكره. يمكنك تصور رموشه وعليها آثار ضباب كثيف، كأنّه أحد أنواع الحلوى المُذابة والقاسية، وبين الضباب والنيران تستطيع أنْ ترى شكلاً من أشكال قوس القزح مُرتسماً على شاربيه.

أجابها جون بروية وهو ينفضُ وشاحه ويدفئ يديه: «لا عجب من ذلك يا دوت، نحن لسنا في فصل الصيف كما ترين».

أجابت السّيدة بيري بينغل: «أفضّل يا جون ألا تناديني دوت. فأنا لا أحب ذلك»، ولكن في نبرتها، وهي تتحدث، بدت كأنّها تحب ذلك بشدة.

أجابها جون وهو يضع يده الكبيرة والشديدة برفق على خصرها: «إذن ما أنتِ إنْ لم تكوني كذلك؟ أنتِ نقطة و...» وهنا نظر إلى الطفل الصّغير ثم أكمل، «نقطة صغيرة وحنون. لن أقولها إذن خوفاً من أنْ أفسدها، ولكنني أقولها ممازحاً فقط، ولا أعلم إنْ كنتُ يوماً قريباً منك إلى هذا الحدّ لأقولها».

كثيراً ما كان جون يشعر خلال حسّه الخاص وحساباته الخاصة بأنّه مقرّب بطريقةٍ ما. هذا هو جون البطيء، الصّادق، هذا هو جون ثقيل الوزن ولكن خفيف الرّوح. تراه من الخارج خشناً جداً، ولكنه من الداخل لطيف ولين القلب، هو بليد المظهر لكنه شهم الأفعال، هو بارد الطِّباع لكنه طيبٌ جداً! أوه أيتها الطبيعة الأم امنحي هؤلاء الأطفال الحب الحقيقي المتخفي في هذه العربات المتنقلة -حيث يقود جون عربة ويلتقط الأطفال اللقطاء- ويمكننا تحمل سماعهم وهم يتحدثون بكلام غير مفهوم، ويمكننا تحمّلهم وهم لا يُطاقون. فليبارك الله لجون ولدوت عملهما!

كان من اللطيف جداً رؤية دوت بحجمها الصّغير تحمل بذراعيها طفلاً صغيراً، وترتسم على شفتيها ابتسامة جميلة، وتضاحِك الطفل وهي بقرب النار، وتحني رأسها كفاية لتُشعر الطفل بالأمان. تتدفق من داخلها مشاعر الأمومة الغامرة، تُشعرها بأنّها الأم المثالية للطفل، غير مبالية بما يجري حولها. وكان من اللطف أكثر أنّ جون هو مَنْ يحاول أنْ يعدل من سلوكه كي يستطيع أنْ يساعد دوت بِحِملها الصّغير. والأكثر لطفاً من بينهم كانت تيلي سلوبوي التي كانت تنظر من الخلف إلى الطفل الصّغير وهي تحاول

أنْ تحلل الأمور في عقلها (على الرّغم من كونها في سن المراهقة الأولى) لهذه المجموعة. وقفت تيلي مبهورة: عيناها مفتوحتان جداً وكذلك فمها، أما وجهها فإلى الأمام مباشرة. والجدير بالذّكر أنّك حين تنظر إلى جون كافل اللُّقطاء، فتستطيع أنْ ترى بأنّه يتفحص يده بعناية قبل أنْ يلمس الرّضيع خوفاً من أنْ يكسر عظماً من عظامه أو يؤلمه. انحنى إلى الأمام قليلاً، وبهدوء تام وبمسافة آمنة رَبَتَ على الرّضيع؛ شعر حينذاك كأن الكون كله يتجسّد في هذا الرّضيع المسكين، انطلقت في داخله مشاعر الأبوة التي كانت في يوم من الأيام نائمة في داخله.

«ألا يبدو جميلاً يا جون؟ أليس كالجوهرة وهو نائم؟»

قال جون: «هذا الرّضيع ثمينٌ حقاً. إنّه نائم أليس كذلك؟»

«من غير شك لا!»

قال جون وهو يفكر: «أوه، اعتقدت أنّه نائم لأنّ عينيه مغلقتان. مرحباً أيها الصّغير!»

«يا إلهي يا جون! لقد أفزعته!»

قال جون الكافل: «اعتقد أنّه من غير المناسب أنْ نوقظ طفلاً بهذه الطريقة! انظري كيف يغمز بعينيه، هل يغمز؟ انظري إلى فمه يا إلهي! لماذا يلهث ويتلوى هكذا كالسمكة!»

قالت دوت بكل ثقة لكونها خبيرة بهذه الأمور: «لا تستحق أنْ تكون أباً. أنت لا تصلح لذلك أبداً. كيف لك أنْ تعلم يا جون

ما احتياج الطفل حين يبكي! أنت لا تعرف هؤلاء إلا أنّهم أطفال أيها الزميل الغبي». سَنَدتِ الطفلَ إلى ذراعها الأيسر ثم صفعت ظهره بلطف كي يهدأ، ثم قرصت أذن زوجها وهي تضحك.

قال جون وهو ينزع معطفه الخارجي: «لا أعلم أنكِ صادقة. أعلم فقط أنني كنت أقاتل الرّياح بقوةٍ ليلاً. لقد كانت تهب تجاه الشّمال الشّرقي مباشرةً في العربة طوال الطريق إلى البيت».

قالت السّيدة بيري بينغل وقد أصبحت نشطة فجأة: «أيها العجوز المسكين، هل فعلتْ بك الرّياحُ هذا فعلاً! عزيزتي تيلي تعالي وخذي هذا الرّضيع المسكين لكي أرى ما بوسعي فعلُه من أعمال. فليبارك الله هذا الطفل، قد أخنقه من شدة تقبيلي له، قد أفعلها! مرحباً أيها الكلب المطيع! بوكسر كلبٌ جيد! دعني أصنع بعض الشّاي أولاً يا جون ثم سأساعدك في الطرود مثل النّحلة النّشيطة. هل تعلمتَ يوماً كيف تغلف الطرود في المدرسة يا جون؟»

أجابها جون: «ليس تماماً. كنت قريباً من تعلُّمها يوماً ما، ولكنني أفسدتها فقط؛ وأجرؤ على قول ذلك أيضاً».

ضحكت دوت ضحكة طويلة وعميقة أكثر من أي وقتٍ مضى: «يا لك من عزيز قديم يا جون!»

خرج جون في ذلك الوقت إلى الخارج ليرى الصّبي حامل المصباح يرقص ذهاباً وإياباً أمام الباب والنافذة وكأنّه الوصي على لفافة ثمينة داخل المنزل. هذا الطفل الصّغير هو من يعتني بالحصان. لقد كان هذا الحصان أكثر بدانة مما تتخيل، بل كبيراً جداً حتى إنني لو أعطيتك تاريخ ولادته لضاع بين ضباب العصور القديمة.



الكلب بوكسر، الذي يهتم وبشدة بهذه العائلة الصغيرة، يَشعُر دائماً بأنّ من واجبه أنْ يصبّ كل اهتمامه على العائلة بشكلٍ عام، ولكنّه يوزع اهتماماتٍ شخصية لكل واحدٍ منهم بشكل خاص ونزيه. يُجري دوماً دخولاً وخروجاً من المنزل، تراه أحياناً يحوم

حول الحصان وينبح بمدى قصير ثم يركض تجاه الباب ويفرك جسده به، وفي حينٍ آخر تراه يحاول الدفاع عن محبوبته ربة المنزل السّيدة بيري بينغل، وبمرح يقف مرةً أخرى بشكلٍ مفاجئ، أو يذهب إلى تيلي سلوبوي وهي جالسةٌ بجانب النيران ويضع أنفه المبلل على وجهها مما يجعلها تصرخ غاضبة. والآن هو يحاول أنْ يُظهر اهتماماً ناحية الطفل، ثم يركض حول الموقد ثم يستلقي كأنّه قد أتم مهمته في التعريف بنفسه لهذه الليلة. ولكن ما لبث أنْ جلس حتى استقام وبدأ يدور حول نفسه محاولاً تعقب ذيله؛ تَشعر أحياناً بأنّه لا يعلم بأنّ لديه ذيلاً.

قالت دوت وهي تتحرك في المنزل كالطفل النشيط: «ها هو هناك إبريق الشاي، هو جاهزٌ على الموقد! وهنا قطعة لحم خنزيرٍ باردة، وهنا الزبدة، وهذا رغيف الخبز المقرمش، هذا كل شيءٍ هنا! وهناك سلة الملابس لترتيبها من أجل الطرود. يا جون، إنْ كان لديك أيّ... جون أين أنت؟ تيلي تعالي وراقبي الطفل واحرصي على ألّا يقع بجانب الموقد مهما حصل!».

لم تكن الآنسة سلوبوي تحب الاعتناء بالأطفال، وبسبب ذلك فتستطيع أنْ تُلاحظ أنّ الطفل كان يقع في الخطر دائماً على الرغم من فترة عيشه القصير. هذه الآنسة الصغيرة مستقيمة ولكن لها هيئة البُخلاء، ترى بأنّ ثيابها أنيقة جداً حتى إنها تكاد تسقط عن كتفيها من شدة نعومتها وشكلها الفضفاض. تُعتبر فساتين الآنسة رائعة بالنظر إلى التطور الهائل للأزياء في ذلك الوقت، ويمكن مُلاحظة ذلك في المناسبات حيث تتألق بأفضل ما عندها. حتى القطع الداخلية التي ترتديها مصنوعة من القطن الناعم وذات هيكل واحد غير

متجزّئ وغالباً ما يكون لونها أخضر قاتماً. كانت الآنسة دائماً في حالةٍ من الإعجاب الشديد بكل شيء وتحاول أنْ تستوعب كل ما يحصل حولها، تتأمل بسيدتها والطفل الصغير، إلا أنّ لدى الآنسة سلوبوي أسلوب الحكم السريع على المظاهر ويمكن القول إنّ ذلك يؤثر في تصرفاتها ومشاعرها. عانت الآنسة سلوبوي حتى استطاعت أنْ تصل إلى مرحلة الراحة في هذا المنزل والتعامل بلطف مع من يقطن معها. لم يتم التعرف يوماً إلى والديْ هذه الفتاة، لم يعلم أحدٌ مكانهما يوماً، وكانت تيلي قد ربّتها جمعيةٌ خيريةٌ عامة. كانت لقيطة، في حين كان يمكن أنْ يتبدل وضعها لو أنّها عاشت بين أحضان والديها.

عادت السّيدة بيري بينغل مع زوجها إلى المنزل، وقد قامت بتعبيرات مرحة بسبب قيام زوجها بحمل سلة الملابس مما جعله يقوم ببعض التمارين في المنزل ولو أنّها قليلة وغير عظيمة. لو رأيتهما في حالتهما تلك لكان الأمر مبهجاً لك مشاهدتُهما بقدر ما هو مبهج لي، وقد يكون مبهجاً للصرصار أيضاً. على الأغلب كل شيء يحصل في المنزل يعتبره الصرصار مسلياً له، فقد عاد الآن إلى التغريد من جديد ولكن هذه المرة بشدة.

قال جون بنبرته الهادئة والبطيئة: «وصل إلى ذروته! أعتقد أنّه يشعر بالمرح أكثر من أي وقتٍ مضى».

«إنّه يجلب الحظ الجيد يا جون، لطالما فعل ذلك! الحصول على صرصارِ ليلٍ على الموقد قد يكون أكثر الأشياء حظاً في العالم!».

نظر جون إليها وكأنّ كلامها هو نفسه ما خطر بباله في تلك اللحظة، وافقها على ما قالته فوراً. قد يبدو هذا طبيعياً ولكن

سكوت جون، بعد كلامها كان أشبه بهروبٍ مؤقت من الخوض في نقاشٍ معها.

«أتتذكر المرة الأولى التي سمعت فيها صفيره المبهج؟ لقد كان قبل عامٍ تقريباً حين اصطحبتني إلى المنزل، المرة الأولى التي أحضرتني فيها إلى منزلي الجديد. لا بد أنّك تذكر يا جون؟»

أوه أنا أقول لكم إنّ جون قد تذكر!

«لا زلت أذكر تغريدته التي كانت تحمل كمية الحب والترحيب بي! لقد شعرت حينذاك بأنّها كانت مليئة بالوعود والتشجيع وكأنّه يقول لي إنني سأكون لطيفة وسأعتني به، وأنّه لن يجد أفضل من كتف زوجتك الهزيل ليقف عليه (لدي مخاوفي من هذا الأمر وكذلك جون)».

ربت جون على إحدى كتفيها ثم على رأسها، وكأنّه يقول لها لا وأنّه لم تكن لديه مثل هذه التوقعات، لقد كان محظوظاً جداً لأخذهم على ما هم عليه؛ ولقد كان لديه سبب وجيه فهو يحب كتفيها وإنّهما جميلتان جداً.

«لقد تَحدثتَ بما يجب أنْ تقوله يا جون. لقد كنتَ دوماً، وأنا متأكدة من ذلك، الأفضلَ والأكثرَ مراعاة للآخرين. لقد كنتَ زوجاً حنوناً جداً. لطالما كان هذا المنزل سعيداً، وأيضاً فإني أحب الصرصار لأجل ذلك!»

قال الكافِل: «وأنا كذلك، وأنا كذلك يا دوت».

«أحبه لأجل كل الأوقات التي سمعتُه فيها، لأجل كل الأوقات التي أشْعَرَني فيها بالحنين خلال موسيقاه العَذبة. أحياناً وفي وقت الشفق، حين أكون جالسةً وحيدة وأشعر بالقليل من الكآبة والعزلة يا جون -قبل قدوم الطفل إلينا وإضافة البهجة إلى المنزل- كنت أفكر كم كنتَ ستكون وحيداً لو أنني مُتّ، كم سأشعر أنا بالوحدة حين أدرك بأنّك خسرتني، وفي ذلك الوقت أسمع صفير هذا الصرصار فوق الموقد بصوته الجميل والرّقيق يخبرني بأنّ كل شيء سيكون بخير وأنّ كل آلامي سوف تختفي كالحلم. وحين كنتُ خائفة، وقد خفت من هذا الموضوع مرة واحدة فقط يا جون، لقد كنت صغيرة كما تعلم؛ من أنّ زواجنا قد يكون فاشلاً ولا يستمرّ. لقد كنت طفلةً حقاً وكنتَ أنتَ مرشداً أكثر من زوج لي، وأنّك مهما حاولت أنْ تحبني وأنْ تتمنى أو تدعو ليحصل ذلك فلن تنجح؛ ولكن أقول لك مجدداً صفير الصرصار المتكرر قد أبهجني كثيراً وملأني بالثقة والسكينة مجدداً. الليلة وحين كنتُ جالسةً بانتظارك كنت أفكر في هذا الأمر، وإنني أحب هذا الصرصار من أجل ذلك!»

أعاد جون على مسمعها: «وأنا كذلك»، ثم أكمل: «ولكن يا دوت، أنا أتمنى وأدعو من أجل أنْ أحبكِ؟ ما الذي تقولينه؟ لقد تَعلمتُ ذلك منذ وقتٍ طويلٍ جداً، من قبل أنْ أصطحبك إلى هنا، وقبل أنْ تحبّي هذا الصرصار يا عزيزتي دوت!»

نظرت دوت نحو زوجها بتعابير قلقة كما لو أنّها قالت شيئاً سيئاً ثم وضعت يدها على يده. في اللحظة التي تليها جلست دوت على قدميها وقالت بصوتٍ بهيج ومفعم بالحيوية وهي مشغولة بالطرود:

«ليس هنالك الكثير من الطرود الليلة يا جون، ولكنني رأيت بعض الأشياء الجيدة في خلفية العربة. أظنّ أنّ هذا سيسبب لنا بعض المشاكل بما أنّهم لا يزالون يدفعون كما كانوا، لذا فليس لدينا سبب وجيه للتذمر، أليس كذلك؟ وأيضاً افترض بأنّك تسلّمتَ كل الطرود بما أنّك هنا وحدك؟»

قال جون: «أجل من غير ريب، هنالك الكثير من الأشياء الجيدة».

«ما هذا الصندوق الدائري هناك؟ يا للهول يا جون، إنّها كعكة زفاف!»

قال جون بتعجب: «اترُكِ المرأة وحدها وستكتشف لك ما بداخل أي شيء فوراً. لا يمكن للرجل أنْ يفكر في هذا مطلقاً، ثم إنّني إنْ كنت سأغلف الكعكة في صندوق شاي، أو أضعها تحت سرير، أو في برميل سمك سلمون مخلل أو في أي شيء غير منطقي، فأنا واثقٌ بأنّ المرأة ستكتشف فوراً أين هو وما هو. أجل عزيزتي لقد جلبته من مخبز الفطائر».

قالت دوت بحماسٍ شديد محاولةً رفع الصندوق: «كم يزن هذا الشيء، لا بد أنّه يزن قنطاراً. لمن هذا يا جون؟ إلى أين ستأخذه؟»

قال جون: «اقرئي المكتوب خلف الصندوق».

«ماذا يا جون! يا إلهي!»

أجابها جون: «أجل، من كان يتوقع ذلك!»

جلست دوت على الأرض وهي تهز برأسها ناحية جون: «ألا تقصد بقولك إنّ هذا الصندوق من السيد غراف وتاكلتون صانع الألعاب!» أومأ جون برأسه موافقاً.

هزّت السّيدة بيري بينغل رأسها أيضاً على الأقل خمسين مرة؛ ولكن ليس في موافقة بل في دهشة غامرة وهي تشد على شفتيها بكل قوتها (وأنا أقول لك إنّ شفتيها لم تُخلقا للشد وأنا أشدد على هذا). الآنسة سلوبوي في هذا الوقت كان لديها القوة العجيبة في تحويل الحديث الذي تستمع إليه وصياغته بطريقة تجعل الطفل يهدأ. بدأت السّيدة بيري بينغل بالتعجب بصوتٍ عالٍ، إذن، هل كان هو غراف وتاكلتون صانع الألعاب، وهل سيصنع صانعو الفطائر كعكة زفاف، وهل عرفت أمهاتهم الصناديق التي جلبها آباؤهم إلى المنزل، وتتوالى الأسئلة.

قال دوت: «هل هذا يحدث حقاً! أتعلم لقد كنا نحن الفتاتين معاً في المدرسة يا جون».

على ما يبدو كان يفكر فيها، أو نصف تفكيره فيها والنصف الأخر في تلك المدرسة التي كانت ترتادها وهي صغيرة. لم يقل لها شيئاً ولكنه نظر إليها بسعادةٍ غامرة ووجهٍ بشوش.

«ألا ترى بأنّه عجوزٌ جداً بالنسبة إليها، كم فرق العمر بينهما؟ هل هو أكبر منكَ يا جون؟»

أدار جون كرسيّه نحو الطاولة ليبدأ بتناول لحم الخنزير البارد وهو يجيبها بطيب خاطر: «برأيكِ، كم كوباً من الشاي عليّ أنْ

أحتسي هذه الليلة بما أنّ غراف وتاكلتون شرب أربعة أكواب في جلسةٍ واحدة، أتعجب حقاً! أما بالنسبة إلى الطعام، فأنا أكل القليل ولكنني أستمتع بهذا القدر يا دوت!»

حتى في هذه الأوقات، أوقات الطعام كانت مشاعره متقبّلة جداً (لطالما كانت شهية جون متقطعة كثيراً وفيها مُعضلة)، لم يُظهر جون أي ابتسامة في وجه زوجته الشابة التي كانت تقف بجانب الطرود وتدفع بقدمها صندوق الكعك عنها، ولم تنظر هي إليه نظرةً واحدة. وقفت هناك مستغرقةً في التفكير غافلةً تماماً عن الشاي وعن جون (على الرغم من أنّه قد نادى عليها ووضع السكين على المائدة كي يجذب انتباهها) ثم وقف وأمسكها من يدها، نظرت إليه لحظة ثم سارعت إلى مكانها خلف طاولة الشاي وهي تضحك من غفلتها. لم تكن ضحكتها كعادتها، كانت النبرة والأسلوب مختلفين تماماً. لم يكن هذا ما حدث فقط، بل إنّ الصرصار توقف عن الصفير، وبدت الغرفة كئيبة على نحو ما، وغير مفرحة مثل باقي الأيام. لم تكن الغرفة قد شهدت جوّاً كهذا من قبل.

كسرت السّيدة بيري بينغل الصمت الطويل بقولها: «هذه كل الطرود، أليس كذلك يا جون؟»

قل جون: «نعم، هذا كل شيء». لم يلبث أن وضع السكين والشوكة جانباً وأخذ نَفَساً طويلاً ثم قال: «لحظة، أوه لقد نسيت ذلك العجوز تماماً».

«العجوز؟»

قال جون: «في العربة. لقد كان نائماً بجانب كومة التبن في آخر مرةٍ رأيته فيها. لقد تذكرته مرتين على الأقل حين أتيت هنا ولكنني بعد ذلك نسيت أمره تماماً. هيّا بنا، لنذهب بسرعة!»

قال جون كلماته الأخيرة حين كان في الخارج وقد أسرع وهو يحمل الشمعة بيده.

الآنسة سلوبوي، في وعيها لبعض الأمور التي تحصل بالنسبة «إلى الرجل العجوز» وربطها في خيالها بعض الجمعيات ذات الطابع الديني وأنّ له صلة بمثل هذه الأمور، كانت منزعجة جداً وتقترب من النار للجلوس بجانب سيدتها للحصول على الحماية منها. اقتربت من عتبة الباب في طريقها وإذا بالغريب يقف في وجهها وبغريزة الدفاع عن النفس فقد قامت بضرب الرّجل بأقرب شيء في متناول يدها، وحدث أنْ كان طفل ما بيدها. تلا ذلك فوضى عارمة وضجة كبيرة، ازدادت عدائية بوكسر ونباحه، بما أنّه يهتم بجميع مَنْ في هذا المنزل فقد كان يراقب العجوز وهو نائم لئلا يسير ويسرق بعض شجر الحور الذي كان مربوطاً خلف العربة. لا يزال ينظر مِن كثب إلى هذا الرّجل بعدوانية، يراقب كل خطوةٍ يخطوها ومستعداً للانقضاض في أي لحظة.

في هذه الأثناء كان العجوز يقف في وسط الغرفة عاري الرأس ودون حراك. حين استعاد جون هدوءه قال: «لاحظت أنّك قد نمت جيداً يا سيدي. لا أعرف هل من اللائق أنْ أسألك عن الستة الباقين، أين هم؟ أم هل ستعتقد أنني بنصف عقل! أقول ذلك

للمزاح فقط لا تأخذ الأمر على محمل الجد، أعلم أنني سأفسد الأمر عما قريب». غمغم الكافل مع ضحكة مكتومة: «قريباً جداً!»

ذلك العجوز الغريب مريبٌ حقاً، يملك شَعْراً رمادياً طويلاً، ملامحه واضحة وجريئة بشكل كبير بالنسبة إلى رجلٍ في هذا العمر، عيونه غامضة ولكن لامعة وثاقبة وتحوم حول المكان مع ابتسامة، ثم حيّا زوجة الكافل بحركةٍ غريبة من رأسه. ملابسه ظريفة وغريبة في نفس الوقت، ويبدو عليها أنّها من زمانٍ آخر. كان لونها كلها بنيّاً، ويحمل في يده شيئاً ما يشبه عصا المشي بلونٍ بنيّ أيضاً، ضرب بها الأرض فسقطت وتحولت إلى كرسيٍّ صغير ثم جلس عليها يحاول أنْ يألف المكان من حوله، هو رجل غريب أليس كذلك!

التفت الكافل جون إلى زوجته وقال: «هكذا أترين! لقد وجدته على هذه الحال جالساً بجانب الطريق! معتدلٌ مثل المَعلَم وتقريباً كالأصم».

«يجلس في العراء يا جون!»

قال الكافل: «في العراء وعند الغسق، وينتظر عربةً ما. وحين وقَفتُ دفع لي ثمانية عشر بنساً وصعد إلى العربة وها نحن هنا».

«اعتقد أنّه سوف يذهب يا جون!»

لم يكن العجوز سيذهب ولكنه كان سيتكلم.

قال العجوز بأقل ما يقال: «المعذرة، كنت حينذاك سأغادر لولا أنّك دَعوتني. لا تهتم بي مطلقاً».

بعد ذلك أخذ نظارته من أحد جيوبه الكبيرة وكتاباً من الجيب الآخر وبدأ القراءة على مهل. لم يفعل أكثر مما فعل الكلب بوكسر، مما جعله يبدو كأنّه زينة منزل. تبادل الكافل وزوجته نظرات الحيرة، رفع الغريب رأسه ونظر ناحيتهما ثم قال:

«هذه ابنتك أيها الصديق الطيب؟»

ردَّ جون: «بل زوجتي».



قال الغريب: «ابنة أخ؟»

قال جون بغضب: «زوجتي».

تعجب الغريب: «حقاً؟ هل أنت متأكد؟ إنها شابّةٌ جداً!»

التفت مجدداً إلى كتابه وأكمل القراءة. ولكن قبل أن يكمل قراءة سطرين قاطع قراءته وقال:

«أوه طفل، هل هو لك؟»

أعطاه جون إيماءة واضحة تعادل إجابة بالإيجاب مع نفيرٍ قوي.

«فتاة؟»

قال جون بصخب: «بل صبي!»

«إنّه صغير جداً أيضاً!»

قاطعته السّيدة بيري بينغل فوراً قائلة: «ثلاثة أشهر ويومان! وتم تلقيحه قبل ستة أسابيع فقط! وقد استجاب جسده للمطعوم

بشكلٍ جيد! وقد اعتبره الطبيب طفلاً جميلاً جداً! يساوي المدى العام للأطفال في عمر خمسة أشهر! إنّه يجذب الأنظار إليه بطريقة رائعة جداً! قد لا تصدق ما أقوله ولكنّ قدميه جاهزتان لحمله!»

أصبح وجه هذه المرأة التي انقطع نَفَسُها وهي تتلو على مسامع الرّجل هذه الجمل أحمر كالقرمز، ثم حملت الطفل قِبالته ليتأكد من صحة كلامها. صرخت تيلي سلوبوي في هذه اللحظة هتافاتٍ كثيرة وكلماتٍ لم يكن لها معنى وغير مفهومة وبدا صوتها كأنّها توشك أنْ تعطس، ثم بدأت تقفز حول الطفل البريء.

قال جون: «انظر إلى كل هذا! لقد جلبت ذلك لنفسك بالتأكيد. هنالك أحدٌ ما على الباب، تيلي افتحيه رجاءً».

وقبل أنْ تصل إلى الباب كان قد فُتح من تلقاء نفسه، فكونه نوعاً بدائياً من الأبواب مع قفل قابلٍ للرفع فيمكن لأي أحدٍ أنْ يرفعه بسهولة متى شاء؛ وقد اختار معظم الجيران فعل ذلك، إذ هنالك الكثير من الأشخاص الذين يحبون التكلم مع جون لأخذ بعض الطاقة الإيجابية من كلماته المفرحة، على الرغم من عدم كونه متحدثاً بارعاً مع نفسه. مع فتح الباب دخل رجلٌ صغير وضئيل الحجم، يبدو على ملامحه عُمقُ التفكير، ووجهه الداكن ملحوظ بشكل كبير، يرتدي معطفاً كبيراً يبدو كأنّه قد صنعه من أوراق الصناديق القديمة. حين دخل أغلق الباب خلفه وأبقى العاصفة في الخارج ثم خلع معطفه مما كشف ما خلفه، نقشٌ للحرفين G & T بخطٍ أسود كبير، وأيضاً كلمة GLASS بخطٍ عريض.

قال الرّجل الضئيل: «مساء الخير يا جون! مساء الخير يا سيدتي، مساء الخير يا تيلي، مساء الخير أيها الرّجل الغريب! كيف حال الطفل يا سيدتي؟ أَملُ أنّ بوكسر بحالٍ جيدة؟»

أجابته دوت: «الكل بخير كما ترى يا كاليب. أما بالنسبة إلى الطفل فأنا أعتقد أنّك محتاج إلى النظر إليه».

قال كاليب: «أنا متأكدٌ من أنّني بحاجة إلى هذه النّظرة إليكِ أيضاً».

لم ينظر إليها على الرغم من ذلك، لقد كان لديه عينان تائهتان وعميقتا التفكير تراهما تسرحان في مكانٍ وزمانٍ آخرين. بغض النّظر عما قاله إلا أنّ وصفه ينطبق تماماً على صوته بالتساوي.

قال كاليب: «أو لربما أحتاج هذه النّظرة إلى جون، أو إلى تيلي بقدر ما أستطيع. أو حالياً إلى بوكسر».

سأله الكافل: «أمشغولٌ الآن أنت يا كاليب؟»

أجابه بجوّ من الاضطراب: «كثيراً كما ترى يا جون، إلى حدٍ كبير جداً. هنالك بالأحرى أعمال كثيرة تجري على سفينة نوح في الوقت الحاضر. كان يمكنني العمل على تحسين الأسرة ولكنني لا أرى كيف سيتم ذلك بهذا الوضع. أعتقد أنّ هذا الأمر سيكون مريحاً للشخص، وسيكون أكثر وضوحاً من ابني النبيّ نوح: سام وحام، ومن زوجاتهما. أما الذباب فليس على هذا المقياس أيضاً، مقارنةً مع الفيلة كما تعلم! آه لا أدري ما الذي أقوله! هل هنالك أي شيءٍ لي في هذه الطرود يا جون؟»

وضع الكافل يده في جيب المعطف الذي كان قد خلعه وأخرج منه وعاءَ زهورٍ صغيراً محفوظاً بعناية في أوراق طحالب. ثم قال وهو يعدّله بعناية فائقة:

«ها هو! إنّه ليس بهذا القدر ولكنه مليء بالبراعم!»

حينئذ أشرقت عينا كاليب الحزينتين وهو يأخذ منه الوعاء، ثم شكره على لطفه.

قال الكافل: «إنّها غالية يا كاليب، إنّها غالية جداً في هذا الموسم».

«لا تقلق من هذا، ما زالت رخيصةً بالنسبة إليّ؛ مهما كلفت»، ثم التفت الرّجلُ الضئيلُ وأكمل: «هل هناك شيءٌ آخر يا جون؟»

أجابه الكافل: «صندوقٌ صغير، هاكَ!»

قال الرّجل الضئيل: «هذا من أجل كاليب بلامر. ولكن هذا أتى مع النقود، مع النقود يا جون؟ لا أعتقد أنّ هذا يعود إليّ».

أجابه الكافل وهو يضع يده على كتفه: «هو لك. من أين تحصل على النقود؟»

قال كاليب: «أوه! كن واثقاً كل شيء على ما يرام! أجل، أجل، لا بدّ أنّ هذا لي. كان يمكن أنْ يكون لديّ بعض النقود لو أنّ ولدي العزيز كان قد عاش في أمريكا الجنوبية الذهبية يا جون. أعتقد أنّك أحبَبْتَه كما لو كان ابنك، أليس كذلك؟ لا داعي لأنْ تخبرني بهذا فأنا أعلم يقيناً بهذا الأمر. كاليب بلامر، أجل، أجل. هل هذا صندوق دُمى! إذن أعتقد أنّه لابنتي، أتمنى لو كنت أستطيع رؤية خيالها في هذا الصندوق يا جون».

قال الكافل: «أتمنى هذا أيضاً يا كاليب، أتمنى لو يحصل!»

قال الرّجل الضئيل: «شكراً لك يا جون، كلماتك لطيفةٌ حقاً. مجرد التفكير في أنّها لن ترى دُمىً أبداً شيءٌ مزعجٌ جداً، طوال الوقت أيضاً! هذا أكثر ما يؤلم في الأمر. ما الأضرار يا جون؟»

قال جون: «لن تفرحي يا دوت إن استفسرتِ عن هذا الأمر! هل هو قريبٌ جداً؟»

قال الرّجل الضئيل مُلاحِظاً نبرته: «حسناً! حين تقول هذا تبدو كأنّكَ أنت حقاً، إنّها طريقتك الفريدة في الحديث. دعني أرى، أعتقد أنّ هذا كل شيء».

قال الكافل: «لا أظن هذا، انظر مجدداً».

قال كاليب بعد التأمل بعضَ لحظات: «هل هو شيءٌ لحاكمنا المسؤول عنّا؟ دعني أكون صادقاً معك فهذا أول ما خطر في بالي، ولا يَنفك رأسي يفكر في هذا الأمر! لا أعتقد أنّه كان هنا، هل كان؟»

أجابه الكافل: «من غير شك هو لم يكن حاضراً بنفسه، إنّه مشغولٌ بالمُغازلة».

قال كاليب: «ولكن على الرغم من ذلك فإنّه يأتي إلى هذه الأرجاء في بعض الأحيان. لأنني أتذكر أنّه أخبرني بأنْ أُبقي مَسيري على الطرف القريب من الطريق عند عودتي إلى المنزل. لقد كانت الساعة العاشرة حين أقلني، كان من الأفضل لي لو غادرت وودعته. سيدتي، لا أعتقد أنّه لديك قسوة القلب لتَدَعيني أشدُّ ذيل بوكسر لحظةً واحدة أليس كذلك؟»

«لماذا يا كاليب؟ هذا سؤالٌ غريب حقاً!»

قال الرّجل الضئيل: «أوه لا عليكِ يا سيدتي، لم أظن أنّه هو أيضاً سيحب الأمر. قرأت إنّ قانوناً جديداً قد أُصدر بشأن قضية نباح الكلاب، وأردت أنْ أكون الأقرب من الطبيعة حين يحصل ذلك حتى لو دفعت الستة بنسات التي أملكها، هذا كل شيء. لا عليكِ سيدتي لا تشغلي بالك بهذا».

وبحدثٍ غير متوقع دون أيّ تحفيز أحدٍ منهم بدأ بوكسر بالنباح بحماسٍ كبير، ولكن نباحه لم يكن عادياً إذ كان يدل على أنّ هنالك زائراً قادماً. أرجأ كاليب تأجيل مناقشته إلى وقتٍ آخر، فحمل الصندوق الدائري وهمّ بالخروج إلا أنّ القدر قد سبقه وجعله يلتقي الزائر على عتبة الباب.

«أوه أنت هنا! حسناً انتظر قليلاً سأوصلك إلى المنزل في طريقي. جون بيري بينغل خدماتي كلها لكَ ولزوجتك الجميلة. أعتقد أنّ اليوم كان سخيّاً جداً لي بل كان الأفضل»، ثم قال بصوتٍ منخفض متأملاً: «أعتقد أنّ هذا هو الشّر بعينه!».

قالت دوت بنبرة غير عادية بتاتاً: «ينبغي لي أنْ أكون مندهشة من إطرائك يا سيد تاكلتون، حالتَكَ هذه فقط».

«أوه، إذن أنتِ تعلمين كل شيءٍ عنه؟»

قالت دوت: «حسناً، كان عليّ أنّ أصدق الأمر بطريقةٍ أو بأخرى».

«بعد صراعٍ شديد على ما أعتقد؟»

«أكثر مما تتوقع».

تاكلتون أو المعروف باسم غراف وتاكلتون صاحبِ متجر الألعاب، سُمِّي هكذا نسبةً إلى الشركة التي كان قد تم شِراؤها منذ زمنٍ طويل، ولكن حين تم شراؤها كانت معروفة باسم غراف وحده، وتخليداً للاسم فلم يتغير فقد تُرِك على ما هو عليه أو بالأحرى بقيت الشركة على ماهيتها منذ ذلك الحين. في نطاق الأعمال، فتاكلتون صاحب المتجر كانت لديه موهبة عظيمة ولكن قد أساءَ فهمَها الأهلُ والأوصياءُ عليه. لم يكن أحدٌ يُحبِّذُ له أنْ يقتني مثل هذه الأعمال التجارية في ذلك الزمن، كانوا على الأرجح يريدون منه أنْ يكون مُقرضاً مالياً للشركات أو بمعنى آخر أن يكون مَمولاً، أو محامياً ذا طباعٍ حادة، أو موظفاً لدى الشرطة أو وسيطاً تجارياً. لو أنّ تاكلتون اتّبع إحدى هذه الوظائف لكان على الأرجح قد زَرع السُّخط والتعب في شبابه. استغلّ تاكلتون موهبته في المعاملات السيئة كي يطرد عنه شر هذه الوظائف التي يمقُتُها، وقد اتضح في النهاية أنها كانت الأنيس له كي يصل إلى ما هو عليه الآن من حداثة وإبداع. على الرغم ممّا وصل إليه فقد عانى كثيراً من التشنجات الكثيرة والغضب الكبير الذي رافقه طوال مسيرته في صناعة الألعاب؛ كان مثل الوحش البشع في محيط عمله يعيش على الأطفال طوال حياته وقد كان العدوَّ الأسمى لهم. قد يبدو هذا متناقضاً جداً ولكنه لطالما كره الألعاب وكان أكره ما عليه أنْ يبتاع لعبة حتى لو دُفع له مقابلها العالم أجمع. يَفرح لخُبثه، ولتلميحات وجهه القاتمة نحو المزارعين الذين يجلبون الخنازير إلى متاجر اللحوم بجانبه، قارعُ الناموس الذي أعلن عن موت ضمائر المحامين في ذلك

الزمن، والعجائز اللواتي يَقتن على حياكة الجوارب وبيع الفطائر البيتية، وغيرهم الكثير والكثير في مجال أعمال التجارة. ألعابه التي يبيعها في أقنعتها المروعة، البشعة، والشَّعر المجعّد بعينين حمراوين كالدم كلعبة جاك في الصندوق، والطائرات الورقية على هيئة مصاصي الدماء، والبهلوانات الشيطانية، يراهنّ دائماً يطرنَ بعيداً وتنعكس عليهنّ مُحيّا الأطفال. إنْ لم يكن لهؤلاء الأطفال عمل فقد كانوا بالنسبة إليه المغيثين ومحرّكي صمام الأمان الذي لا ينطفيء. كان عظيماً في اختراعاته، كان أي شيء جميل بالنسبة إليه كالكابوس اللذيذ؛ فعلى الأقل تجلب له الأموال. كان يضع مزالج الأقزام كالفوانيس السحرية المُضيئة، ويُصور «قوى الظلام» كنوع من الأسماك القشرية الخارقة للطبيعة ولكن بوجوه بشرية. وفي تكثيف فن تصوير العمالقة، فلم يكن الرّسام حاضراً بنفسه ليرسم الخيال إلى واقع ويتم تصميمه، فيأخذ قطعة من الطباشير ويبدأ يرسم تلك الوجوه الخبيثة للوحوش بكل احترافية مما جعلها كافية لفقدان الأمان لأي طفل وطفلة تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة لوقتٍ كامل قد يستمر إلى عيد الميلاد بأكمله أو إلى عطلة منتصف الصيف.

مثلما كان يغوص في مجال عمله فقد كان (مثل معظم الرّجال) أيضاً في أشياء أخرى. قد تفترض بسهولة أنّه -داخل ذلك الرداء الأخضر الكبير الذي قد يصل إلى ساقيه- هنالك زر يصل إلى الذقن فتراه كالزميل اللطيف وغير المألوف، أو فلنقل إنّه أشبه بالرّوح الرفيقة التي ترافق أي شخص، وتتواجد أيضاً على زوج من الأحذية ذات الرؤوس المتداخلة مع قمم بلون شجرة الماهوغاني. ومع ذلك فقد كان تاكلتون تاجر الألعاب سيتزوج، على الرغم من

كل هذا، فإنّه سيتزوج زوجة شابة أيضاً، زوجة شابة جميلة جداً. عندما كان يقف في مطبخ الكافل، فلم يكن يشبه العريس قطُّ، فهو ذو انحرافٍ في وجهه الجاف وذو مسمار في جسده وقبعته تميل نحو أنفه، ويداه مدسوستان في قعر جيبَيْه، وبالإضافة إلى هذا فهناك سيرته الذاتية السّاخرة وغير الكاملة وغير النظيفة أيضاً من منظورٍ ما، إلا أنّه كان عريساً.

قال تاكلتون: «في غضون الثلاثة أيام القادمة أي يوم الخميس القادم، وهو اليوم الأخير من الشهر الأول من السنة، سيكون يوم زفافي».

هل ذكرتُ لكم من قبل أنّ لديه عيناً مفتوحةً دائماً على مصراعها، والأخرى على مقربةٍ من الإغلاق. ألا تبدو هذه العين معبرة؟ لا أذكر أنني أشرت إلى هذا من قبل.

قال تاكلتون: «أجل هذا يوم زفافي!»

قال الكافل بقوة: «إنّه ذكرى زواجنا نحن أيضاً!»

ضحك تاكلتون وقال: «ها ها! هذا غريبٌ حقاً! أنتم أيضاً زوجان آخران».

في هذه اللحظة، لم يكن بالإمكان وصف استنكار جون لهذا التعبير الافتراضي منه. وماذا بعد؟ أعتقد أنّ خياله سيحمل إمكانية أخرى كذلك الطفل الآخر، لربما. لقد كان الرّجل من غير شك مجنوناً.

غمغم تاكلتون ودفع الكافلَ بمرفقه وأبعده قليلاً ثم قال: «أنا أقول لك! وهي كلمة لك. هل ستأتي إلى حفل الزفاف؟ نحن يا جون، كما تعلم، في نفس القارب».

تساءل الكافل: «كيف نكون في نفس القارب؟»

قال تاكلتون بنخزةٍ أخرى له بمرفقه: «تباين ضئيل كما تعلم. لِمَ لا تأتي وتقضي معنا المساء مُسبقاً».

تعجب جون من هذه الضّيافة التي أتت على عجل فقال: «ولماذا؟»

أجابه: «لماذا! أعتقد أنّها طريقة أخرى لتلقي دعوة ما. كما تعلم للمتعة والمؤانسة ولكل هذه الأمور!».

قال جون بلهجته الواضحة كالعادة: «لم أعتقد يوماً أنّك كنتَ مؤنِساً أبداً».

قال تاكلتون: «يا إلهي! أعتقد أنّه لا فائدة إلا أنْ أكون صادقاً معك كما أرى. حسناً سأقول لك الحقيقة -أو كما يقول شاربو الشاي- أنت وزوجتك لكما نوعٌ من المظهر المريح معاً. ونحن نعلم أكثر بذلك ولكن...»

قاطعه جون قائلاً: «لا، أنتم لا تعلمون أكثر. ولكن ما الذي تتحدث عنه؟»

قال تاكلتون: «حسناً! نحن كما تقول لا نعلم أكثر ونحن نتفق على هذا الأمر. على كل حال لماذا يهمك هذا الأمر؟ كنت أريد

القول بما أنّك تملك ذلك المظهر الجذاب فرفقتك ستؤثر إيجاباً في السّيدة تاكلتون. وبما أنني أرى بأنّ زوجتك لا توافقني على هذا الشأن ولن تكون لطيفةً معي، على الرغم من أنّها لا تستطيع مقاومة النّظر إليّ، لأنّ هنالك دائماً لمعة في العين تفضح الرّائي حتى في الحالات المختلفة؛ إذن، فهل ستأتي؟»

قال جون: «لقد خططنا أنّ نقضي ذكرى زواجنا في المنزل (على مرّ العقود). لقد قطعنا هذا العهد منذ ستة أشهر. إذ إننا نعتقد أنّ المنزل...»

قال تاكلتون بصوتٍ مرتفع: «بِه! كلامٌ فارغ! ما هو المنزل أصلاً؟ أربعة جدران وسقف! (لماذا لا تقتل هذا الصرصار؟ أنا أفعل ذلك دوماً، اقتلهنّ دائماً، لأنني أكره أصواتهنّ!) في منزلي أيضاً أربعة جدران وسقف، لِمَ لا تأتي إليه!».

قال جون:» قلت إنّك تقتل الصرصار إذن هاه؟»

قال الآخر وهو يضع ركبته على الأرض بثقلٍ شديد: «اسحقهنّ حتى تَسمع صوت قرقعة كالذي تسمعه حين تدوس على ورقة شجرٍ يابسة. هل ستكون إجابتك إيجابية؟ هل ستأتي؟ أترى الأمر مهماً لك كما هو مهم لي كما تعلم. على النساء أنْ يقنعَ بعضُهن بعضاً أنّهن سعيدات وراضيات، وأنّه لا يمكن للأمور أنْ تكون أفضل حالاً. أنا أعرف ألاعيبهنّ كافة، بغض النّظر عما تقوله امرأة واحدة فإنّ الأخرى بطبيعتها ستصمم على التمسك برأيها ونفسها، دائماً. هنالك روح المحاكاة بينهن يا سيدي. إنْ قالت زوجتك لزوجتي «أنا أسعد امرأةٍ على وجه الأرض، وزوجي هو

أفضل زوجٍ على الإطلاق وأنا أحبه حدّ الجنون»، فزوجتي ستقول نفس الشيء بل أكثر، ونصفهن فحسب من تَصدُقُ في كلامها».

سأله الكافل: «هل تعني بكلامك هذا أنّها لا تعني ما تقوله؟»

قال تاكلتون بضحكة ساخرة، قصيرة وحادة: «لا! لا ماذا؟»

لم يقتصر تفكير الكافل على الأمور الأخرى، بل إنّ كلمته «شغف به» قد أنارت في عقله بعض الأفكار الباهتة. وفي تلك اللحظة حدث أنْ التقت عينُه عينَ الرّجل النصف مفتوحة والتي بدأت تلمع وكأنّها قطعة من الجليد قد سقطت عليها أشعة الشّمس، ثم قال: «ألا تؤمن هي بقولها؟»

قال تاكلتون: «آه أنت غريب! أنت تمزح بقولك هذا».

لكن الكافل، على الرغم من أنّه أخذ وقتاً ليفهم المعنى الكامل لكلامه، نظر إليه بطريقة جادة حتى إنّه اضطر إلى أنْ يُفسّر أكثر.

رفع تاكلتون سبابة إصبعه الأيسر وبدأ ينقر عليه وقال: «أنا أتمتع بحسّ الفكاهة، ها أنا ذا! دهاء تاكلتون المعروف. إنّي يا سيدي لديّ الدهاء الكافي لأتزوج سيدةً شابة وجميلة جداً»، هنا قام بالتربيت على إصبعه الصغير تعبيراً عن العروس، لربما لم يكن يقصد ذلك ولكنه فعلها بشكلٍ حادّ وقوي: «لديّ القدرة على التحكم بدعاباتي وحسي الفكاهي وأنا أفعلها. هذا شغفي. والآن انظر إلى هناك!».

أشار إلى حيث كانت دوت تجلس قبالة النار ومستغرقةً في التفكير، وتميل بخدها ذي الغمّازة على يدها وتتأمل في الشعلة

المضيئة. نظر الكافل إليها ثم نظر إليه، ثم أعاد النّظر إليها ثم مرةً أخرى إليه.

قال تاكلتون: «أقول لكَ وأقطع الشَّك باليقين، إنّها تطيعكَ وتُكرمك. وهذا بالنسبة إليّ أكثر من كافي لأنني لست رجلاً شاعرياً. ولكن السؤال الأهم، هل تعتقد أنّ هنالك أي شيء أكثر من هذا؟»

قال الكافل مؤيّداً كلامه: «سألقي بكل رجل يقول غير ذلك من النافذة».

أعاد الآخر بلهجة غير عادية من النّشاط والإيجابية: «هكذا تماماً، فقط كي تتأكد! مما لا شك فيه. من غير ريب بكل تأكيد. أنا متأكدٌ من ذلك. تصبح على خير، أحلاماً سعيدة!»

كان الكافل في حيرةٍ من أمره مما جعله غير مستريح وغير متأكدٍ أيضاً؛ ولكنه لم يستطع أنْ يخفي مشاعره تلك.

قال تاكلتون بتعاطف: «عِمت مساءً يا صديقي العزيز! سأغادر الآن، ولكن أريد أنْ أخبرك بأمرٍ ما قبل أنْ أذهب، أنت وأنا؛ إننا في الواقع يشبه أحدُنا الآخرَ إلى حدٍ كبير. إذن ألن تأتي غداً مساءً؟ حسناً لا بأس! ستأتي في اليوم الذي يليه أنا متأكد، وسأجلب زوجتي معي. هل أنت موافق؟ شكراً لكَ. ولكن ما الذي يحصل؟»

كان هناك من دوت شهقة عالية وحادة من البكاء المفاجئ، جعلت الغرفة تهتزّ وترنّ كما لو أنّها وعاء زجاجي. وقفت من

مجلسها واستندت كما لو أنّها مُرهقة ومذعورة ومتفاجئة. توجه الغريب نحو النيران كي يدفئ جسده، ووقف على بُعد خطوات من كرسيها بهدوء وصمت.

قال الناقل بصوتٍ مرتفع: «دوت! ماري عزيزتي، ما الخطب؟»

تجمع الجميع حولها في غضون لحظات. كاليب الذي كان يقوم بالالتفاف حول صندوق الكعك، وفي حركة غير متوقعة وبغير وعي تعلق بشعر الآنسة سلوبوي، ولكنه اعتذر لها فوراً.

ضمها الكافل جون بين يديه وقال: «ماري! هل أنتِ مريضة؟ ما الأمر؟ أخبريني يا عزيزتي!».

كانت إجابتها عبارة عن ضرب يديها إحداها بالأخرى والدخول في نوبة من الضحك الشديد. ثم أبعدت قبضتَه عنها وجلست على الأرض وغطت وجهها بمئزرها، ثم بدأت تبكي بمرارة. ثم ضحكت مرة أخرى، ثم بكت مرة أخرى، ثم تكلمت عن برودة الطقس، وحثت الكافل على أنْ يتجه بها صوب النيران، وهناك جلست بصمتٍ كما كانت من قبل. ولا يزال الرّجل العجوز واقفاً، بهدوءٍ أيضاً.

قالت: «أشعر بحالٍ أفضل يا جون. أنا بخير الآن، أنا...»

«جون!»، ولكن جون كان على الطرف الآخر منها، ولكنه لما التفت ناحية الرّجل العجوز فبدت دوت وكأنّها تخاطبه؟ لقد كان عقلها يتساءل عن هذا الأمر.

«عزيزي جون، إنّها مُجرد خيالات لا أكثر، أو نوعٌ من الصّدمة. شيءٌ ما قد خطر على بالي ولا أعلم ما هو، ولكنه ذهب، اختفى تماماً».

غمغم تاكلتون وعيناه تدرسان الغرفة: «أنا سعيدٌ لأنّه اختفى. أتساءل أين اختفى وما كان! همم! يا كاليب تعالَ إلى هنا، من هو ذلك الرّجل صاحب الشعر الرّمادي؟»

أجابه كاليب همساً: «لا أعلم يا سيدي، لم أره قطُّ في حياتي. مظهره سيبدو جميلاً لو كان كسّارة بندق، سيبدو نموذجاً غريباً وجديداً، وأيضاً مسمار سحّاب يقع في أسفل صدره يُفتَح ويُغلَق. سيكون جميلاً جداً».

قال تاكلتون: «ليس بشعاً كثيراً».

قال كاليب بتأمل عميق: «أو كصندوق أعواد ثقاب، يا له من نموذج! نَفُكُّ رأسه بشكلٍ لولبي ونضع فيه أعواد الثقاب، ونجعله يواجه الضوء. ما هو صندوق أعواد الثقاب لرجلٍ محترم!».

قال تاكلتون: «لم يصل إلى نصف البشاعة، لا شيء فيه مثير! تعالَ واجلبْ معك ذلك الصندوق! أملُ أنّ كل شيءٍ بخير الآن؟»

قالت السّيدة الشابة وهي تلوح بيدها له: «أوه اختفى تماماً، اختفى تماماً! ليلة سعيدة».

قال تاكلتون: «ليلة سعيدة. ليلة سعيدة يا جون بيري بينغل. انتبه جيداً وأنت تحمل هذا الصندوق يا كاليب، إنْ سقط من يدك فسوف أقتلك! الظلام حالكٌ أكثر من العادة والطقس أسوأ من قبل، يا إلهي! عِمتم مساءً جميعاً!».

وهكذا، فبنظرة ثاقبة تجول الغرفة مرةً أخرى توجه نحو الباب، يتبعه كاليب وصندوق الكعك على رأسه. ذُهل الكافل بشدّة لما حدث لزوجته، فلم يلبث أنْ كان بجانبها يخفف عنها وطأة الشّدة التي مرت بها قبل قليل، وبصعوبة لاحظوا وجود الغريب معهم في المنزل في تلك اللحظة. ومرةً أخرى كان ضيفهم الوحيد في المنزل.

قال جون: «إنّه لا ينتمي إلينا كما ترين، عليّ أنْ أعطيه أي إشارة كي يغادر».

قال الرّجل العجوز متقدماً قليلاً منه: «أستميحك عذراً يا صديقي، أعتذر إليك بشدة! وأخشى أنّ زوجتك ليست على ما يرام»، ثم وضع يده على أذنه وهزّ رأسه وأكمل، «إلا أنّه لم يأتِ بعدُ مَنْ كان عليه أنْ ينقلني بسبب عجزي هذا، وأخاف أنْ يكون هنالك خطأٌ ما؛ لكن الليلة السيئة بطقسها قد جعلتْ من خلفية عربتك ملجأً مريحاً لي (آمل ألا أحظى بأسوأ منها)، مهما كان سيئاً. فهل تقبل، بكرمكَ أنْ تلطف بي وتَأْجُرَني سريراً هنا؟»

قالت دوت: «أجل، أجل. من غير ريب أجل!»

«أوه!»، اندهش الكافل من سرعة زوجته في قبول طلبه، «حسناً، أنا لا أعترض على هذا! ولكنني لا أزال أشك في...»

قاطعته قائلة: «هش! عزيزي جون!»

جادلها جون قائلاً: «إنّه حجرٌ أصمّ».

«أعلم أنّه كذلك. لا شك يا سيدي، لا شك! سوف أجهز له سريراً في الحال يا جون».

وهي تهمُّ بتجهيز السرير كان يتضح عليها رفرفة روحها وتصرفاتها إلى درجة الغرابة، مما جعل الكافل يقف ويراقبها مستغرباً ومرتبكاً تماماً.

قالت الآنسة سلوبوي للصغير: «هل تُجهز له الأمُّ سريره؟ وهل نما شعره بُنياً ومجعداً بمجرد أنْ رفع القبعة عنه، وهل أفزعته الحيوانات الأليفة الثمينة التي تجلس بقرب المدفأة!».

بهذه الجاذبية كانت تتحدث، وهي عبارات غير خاضعة للمُساءلة من العقل بسبب كونها تفاهات، وغالباً ما تكون حالة عَرضية من الشّك والارتباك، إلا أنّ الكافل في تجوله البطيء ذهاباً وإياباً وجد نفسه يكرر في عقله هذه الكلمات السخيفة، وعدة مرات. رددها حتى حفظها عن ظهر قلب، ورددها مراراً وتكراراً وكأنّه دَرس عليه أن حفظه. عند ذلك وضعت تيلي يدها على رأس الطفل الأصلع الصغير وبدأت تُحسس عليه بنعومة (وفقاً لما تفعله المرضات فهذه حركة جيدة لنوم الطفل)، ثم ربطت القبعة على رأسه.

تأمل الكافل في كلامه وهو لا يزال يسير جيئةً وذهاباً: «أفزعته الحيوانات الأليفة الثمينة التي تجلس بقرب المدفأة. أتساءل ما الذي أفزع دوت!»

شاور الكافل قلبه بما يخص تلميحات تاجر الألعاب التي سمعها منه، ملأه ذلك بغموض كبير واستمر معه إلى أجلٍ غير مسمى. تاكلتون كان معروفاً بسرعة بديهته وخبثه، إلا أنّ الكافل جون قد أحس بالألم بنفسه لكون إدراكه بطيئاً عكسَ تاكلتون. إنّ تلميحاته غير المكتملة قد أقلقته بشدة. يقيناً فهو لم يكن لديه النّية

مطلقاً لربط ما قاله تاكلتون بسلوك زوجته الغريب، ولكن الموضوعين قد اجتمعا في عقله في آن واحد، ولا يمكنه أنْ يبقيهما في ذهنه مطولاً.



سرعان ما كان السرير جاهزاً، والزائر لخجله قد رفض كل المرطبات ما عدا كوب الشّاي، ثم اتجه إلى سريره بصمت. ثم مرةً أخرى جهزت الكرسي الكبير في ركن المدخنة لزوجها، ملأت له غليونه وأعطته إياه، وأخذت كرسيها الصغير المعتاد إلى جانبه وجلست.

دائماً ما كانت تجلس على هذا المقعد الصغير، لربما كان عليها أنْ يكون لديها فكرة مفادها أنّ هذا الكرسي ما هو إلا كرسي صغير ومتملق. كانت في كل الأنحاء والأرجاء، أفضل من يحشو الغليون. يجب عليّ أن أقول، في الأرباع الأربعة من الكرة الأرضية، رأيتُها وهي تضع إصبعها الصغير السمين في الوعاء ثم تضعه في الغليون لمسحه من بقايا التبغ؛ ولظنّها أنّه لا يزال هنالك شيء ما في أنبوب الغليون فكانت تطرقه عشرات المرات وتقربه إلى عينها وكأنّه

تلسكوب، مع لمسة أكثر إثارة في وجهها الصغير المائل، وتنظر إلى الأسفل بين الحين والآخر؛ ظنّها هذا كان أكثر شيءٍ رائع يمكن رؤيته. أما بالنسبة إلى التبغ، فكان الأمر أشبه بعشيقة مثالية، مع إضاءة خاصة تسطع على الغليون وخيوط الدخان، ثم يضعه الكافل في فمه -ويقترب شيئاً فشيئاً من أنفه، وفوق كل هذا فهو لم يحترق بعد- كان كالفَنّ، الفَنّ الرّاقي والرّفيع.

اعترف الصرصار والغلاية بهذا الأمر مرّةً أخرى! وتلك النّار المشرقة اشتعلت مرة أخرى واعترفت بذلك! صانع التبن فوق السّاعة اعترف بذلك! والكافل بجبهته السَلِسة كان الأكثر اعترافاً بذلك!

وعندما كان يتأمل ويفكر وهو ينفخ في غليونه المحبَّب القديم، وعندما كانت السّاعة الهولندية تدق، والنّار تزداد اهتياجاً، وصفير الصرصار يرتفع، يجمع بين عبقرية البيت والموقد (كما كان الصرصار) - خرج من مخبئه بشكله الخيالي إلى الغرفة، وبدأ يصّور له من الخيال أبحُراً ووِدياناً. بدأ يرى نقاطاً من جميع الأعمار وجميع الأحجام قد شغلت الغرفة، نقاطاً على شكل أطفالٍ مرحين يركضون أمامه ويجمعون الزهور من الحقول، نصفهم تقلص ونصفهم الآخر تحول وعاد إلى صورته الأصلية الخاصة. دوت، المتزوجة حديثاً تقف أمام الباب، تتساءل عمن يمتلك مفاتيح المنزل، إنّ في قلبها بعضَ النقاط التي تتشكل على هيئة مشاعر أمومة، تضعهم أمام سلوبوي، التي تحمل الأطفال إلى الكنائس للتعميد. دوت الوقورة، لا تزال شابة ومتفتحة كالوردة. مُشاهدة نقاط مُتشكلة على هيئة فتيات، يرقصن على شكل دائرة. ونقطة سمينة، تلك الفتاة السمينة،

يحاصرها أطفالٌ كالعساكر بلون وردي يَسُرُّ العين. نقاط هناك ذابلة، تتكئ على العصي، يتمايلون وهم يتسللون إلى الأمام. تظهر عربات قديمة أيضاً، وعلى أظهُرِها مجموعة من الملاكمين القدماء الذين لا يبصرون. وعربات جديدة يقودها شبّانٌ أصغر سناً، («أشقّاء بيري بينغل» على طول الخط)، وكافِلون قُدامى مرضى، يمدّون له أيادي بيضاء، قبور موتى وكافلات قديمة تُغادر، وخضارٌ في فناء كنيسة. والصرصار قد أراه كل هذه الأمور، فهو رآهم بوضوح تام على الرغم من أنّ عينيه تُحدقان صوب النّار- نما في قلب الكّافل الضوءُ والسّعادة، وشكر الله بكل قوته، ولم يعد يهتم بغراف وتاكلتون أكثر من اهتمامك.

ولكن، ما كان شكل ذلك الرّجل الذي جلس الصرصارُ الخيالي نفسه بجانب مقعد زوجته، والذي وقف هناك؛ وحيداً مُنفرداً؟ لماذا بقي بجانبها طويلاً، بالقرب منها كثيراً ويده على المدخنة، ويكرر أكثر من أي وقتٍ مضى «متزوجة! ولكن ليس بي!»

أوه دوت! المسكينة دوت! ليس هنالك مكانٌ لهذا في مخيلة زوجك، فلماذا سقط ظله على قلبه!




التغريدة الثانية
مكتبة
t.me/t_pdf
GLASS

كاليب بلامر، الذي يعيش وحيداً مع ابنته الكفيفة كما تقول القصة؛ وآمل، بدعواتي ودعواتك، أن تعود هذه القصة يوماً ما إلى القصص في كتب هذا العالم المبتذل! كاليب بلامر وابنته الكفيفة يعيشان وحدهما في منزلٍ خشبي صغير ومتصدع، ولكنه في الحقيقة كان أفضل من بثرةٍ حمراء بارزة على أنف غراف وتاكلتون. الميزة الوحيدة التي كانت في ذلك المكان هي مباني غراف وتاكلتون التي ربما كانت السبب في هدم منزل كاليب بلامر، جَعَلَتْه كطوبةٍ واحدة في مبنى كبير. إنْ كان أحدٌ ما يعتقد أنّ هدم منزل كاليب بلامر شرفٌ له وإنجاز فلربما لم يدرك أنّ هذا كان له تحسيناً كبيراً. تمسُّكُ مسكنه بمباني غراف وتاكلتون كشخصٍ دبق إلى عارضة سفينة، أو حلزونٍ على عتبة الباب، أو حفنة صغيرة من الفطر على جذع شجرة. ولكنه بالنسبة إلى غراف وتاكلتون كان كالجرثومة التي نشأت من جذعٍ كامل. وفي ظلّ سقف مبانيه المجنونة قام غراف في الماضي بطريقة أو بأخرى بصنع ألعابٍ لأجيالٍ كثيرة من الفتيان والفتيات، الذين وجدوهنّ، ولعبوا بهنّ ثم كسّروهنّ إلى قطع وذهبوا إلى النوم.

لقد قلت مسبقاً إنّ كاليب وفتاته الصّغيرة المسكينة والكفيفة يعيشان هنا. كان يجدر بي القول إنّ كاليب يعيش هنا، وفتاته الكفيفة تعيش في مكانٍ آخر، في منزلٍ ساحرٍ من أثاث كاليب المُهدَّم والقديم. لم يكن كاليب ساحراً ولكنه كان في فنه الساحرَ الوحيد المتبقي لها، هو سِحْر المحبة الذي لم يمت يوماً، وسِحْر الطبيعة التي كانت تتعلم منها، ومن كل هذا جاءت الأعجوبة الكُبرى.

لم تعرف الفتاة الصّغيرة يوماً أنّ السّقوف يتغير لونها، وأنّ الجدران مُكسّرة ومُجرّدة من الجص هنا وهناك، وأنّ الشّقوق العالية

والكبيرة تزداد يوماً بعد يوم، وأنّ العارضة تتهدم تدريجياً إلى الأسفل. لم تعرف هذه الفتاة الكفيفة يوماً أنّ الحديد يصدأ، وأنّ الخشب يتعفن، وأنّ ورق الجدران يتقشّر مهما كان حجمه وشكله، وأنّ المساكن تضمحل. لم تدرك يوماً أنّ هناك تماثيل لأقزامٍ سحرية وأواني فخارية على اللوح، وأنّ الحزن وحرقة القلب يعيشان في المنزل طويلاً، وأنّ شَعْر كاليب الهزيل يتحول إلى اللون الرّمادي أكثر فأكثر مُقابل وجهها غير المرئيّ. لم تكن تعلم يوماً بأنّ لديها مُعلماً بارداً، دقيقاً، وغير مهتم - لم تعلم بأنّ تاكلتون هو تاكلتون باختصار، وأنّه يعيش في خياله ملكاً وغريب أطوار، والذي؛ كان والدها بالنسبة إليهم حارس حياتهم الملائكي هو الذي كان يتوق إلى سماع كلمة واحدة من الشّكر أو المديح.

كل ما كان يفعله كاليب، كل الأشياء البسيطة التي كان يفعلها والدها جميلة! هو أيضاً كان لديه صرصار على الموقد، ولكن الفرق هو أنّه كان يستمع إلى ألحانه بحزنٍ شديد، وأنّ الرّوح التي تُلهِمه في تلك السّاعة قد تتحول من حرمانٍ كبير إلى بَرَكَة لتلك الفتاة الصّغيرة التي تَسعد بهذه الأمور. لو نظرنا إلى الصراصير لرأينا أنّها قبيلة كبيرة وقوية، على الرغم من أن الأشخاص لا يعلمون ذلك (وهذا ما يحدث غالباً)، وأنّه ليس هنالك من عالم غير مرئي لهنّ، فقط أصوات ناعمة يمكن الاعتماد عليها كشكلٍ من أشكال الألحان، إلا أنّها كالأصوات التي تتحدث فيها أرواح النّار والموقد إلى الإنسان.

كان كاليب وابنته يعملان في غرفة العمل المعتادة، التي استعملاها أيضاً غرفة معيشة عادية؛ وهي مكان غريبٍ أيضاً. كان

فيها منازل خشبية منتهية وغير منتهية للدمى من كلّ محطات الحياة العابرة. مساكن وضواحي لدمى في مستوى معيشي عادي؛ ومطابخ وشقق فردية لدمى من طبقاتٍ دنيوية؛ ومساكن وعقارات في العاصمة للدمى الغنية. بعض هذه المنشآت تم تأثيثها بالفعل حسب التقديرات بهدف تسهيل الدمى لذوي الدخل المحدود؛ البعض الآخر يمكن تصنيفه على نطاقٍ أعلى وأغلى: رفوفٌ كاملة من الكراسي والطاولات، وأرائك وهياكل أسِرّة، ومواد تنجيد. النّبلاء والطبقة العليا، والجمهور بشكل عام، لمن تم تصميم هذه المساكن لهم، وُضِعوا هنا وهناك في سِلال يُحدقون إلى السّقف. ولكن في دلالة شهاداتهم في المجتمع وحصرهم في محطاتهم الخاصة (والتي تُظهِر التجربة أنّها صعبة في الحياة الحقيقية)، إلا أنّ صناعة هذه الدمى تحسنت تحسناً كبيراً على الطبيعة، وهي التي غالباً ما كانت من قبل متخلفة وضعيفة؛ لأنّ الصّانعين لا يستريحون في هذه الصناعات الصّعبة كالنسيج الحريري، والطباعة القطنية، وقطع الخُرَق. كان أي خطأ صغير يجعلها غير طبيعية؛ لذلك فكانت الخلافات الشخصية والمشاكل بعيدة كل البُعد عن هذه الصناعة. وهكذا، كانت السّيدة الدمية من الأطراف الشّمعية المثالية على قمة الرّف العلوي، وفي الصّف التالي في السُّلم الاجتماعي المصنوعة من الجلد، والصّف الذي يليه من الكتان الخشن. بالنسبة إلى الأشخاص العادين كان لديهم الكثير من الصناديق الخِرقة التي يصنعون بها أيادي وأرجل والذين أنشؤوا دمى خاصة بهم ولكنهم كانوا بعيدين جداً عن واقعية هذه الصناعة الصّعبة والغالية. كانت هنالك عينات أخرى من الحِرف اليدوية إلى جانب الدمى في غرفة كاليب بلامر. كانت

هنالك سفينة نوح، التي فيها طيور ووحوش مكتظة بشكلٍ غير مألوف. أؤكد لك أنّه على الرغم من أنّها تبدو مكتظة على السّطح إلا أنّها كانت في داخل بوصلةٍ تهتز وترتعش. كان خارج سفينة نوح مجموعة من الرّحالين على الأبواب، زوائد غير متناسقة للأعمال. كان هنالك العديد من العربات الصّغيرة الكئيبة وحين تدور عجلاتها تسمع موسيقى تبدو مستعدّة للانطلاق. العديد من الأدوات الصّغيرة كالطبول وغيرها من الأدوات العَذبة. مجموعة من المدافع، والدروع، والسّيوف، والبنادق. كان هنالك بهلوانات صغيرة في سراويل حمراء قصيرة، وعلى الجانب الآخر كان هنالك سادة كبار، موقّرون بمظهرهم وهيئاتهم، يقفون في أماكنهم المُناسبة. كانت هناك حيوانات من كل الأنواع، خيول على وجه التحديد من كل سلالة تتأرجح على هزازتين ولديها ذيول صغيرة من الفرو الجميل. كان هنالك العشرات والعشرات من الشخصيات الغريبة التي كان يَصعُب تمييزها، أمورٌ لربما يجب ألّا يعب بها أحد، أو لِنقل إنّها عمل حماقات بشرية ضعيفة ولكن فريدة من نوعها في غرفة كاليب بلامر. لن أقول إنّه كان بشكلٍ مبالغ فيه؛ ولكن كان سيجعل الرّجال والنّساء أدواتٍ غريبة، مثل أي لعبةٍ تم التعديل عليها بشكلٍ واضح. في وسط كل هذه الأشياء، كان كاليب وابنته يجلسان ويعملان: الفتاة الصّغيرة على الرغم من عدم إبصارها إلا أنها تصنع ملابس جميلة للدمى، وكاليب يلون الزجاج والألواح الأربعة لقصر عائلة غنية.

إذا أمعنت النّظر في وجه كاليب ورأيت طريقته في التعبير لظننت أنّها تعابير لطلاب كيميائيين يجتهدون في دراستهم أو طموحين لأمرٍ خاص، وعند اللمحة الأولى فقد تظنه غريباً وتافهاً.

ولكن الأمور التافهة التي يصنعها هذا الشخص البسيط وصلت إلى المخابز أيضاً. تصبح الأمور خطيرة جداً نظراً للحقائق، وبغض النّظر عن هذا الاعتبار فأنا لست مستعداً على الإطلاق للتعبير عن نفسي حتى لو كان كاليب عضواً في مجلس اللوردات، أو عضواً في البرلمان، أو محامياً، أو مُضارباً كبيراً، ولو كان كذلك لكان قد تعامل مع اللعب بأقل غرابة، لديّ شك كبير حيال هذا الأمر فيما إنْ كان سيئاً أم لا.



قالت فتاته الصّغيرة: «إذن يا أبي، لقد خرجتَ الليلة الماضية في الجو الماطر بمعطفك الجديد الرائع!»

قال كاليب وهو ينظر إلى علاقة الملابس في نهاية الغرفة، والملابسُ مُعلقة عليها لتجفّ: «في معطفي الجديد الرائع!»

«أنا مسرورةٌ حقاً لأنني ابتَعتُه لكَ يا أبي!»

قال كاليب: «إنّه رائع حقاً! الخياط ماهرٌ جداً، والمعطف يناسبني تماماً».

أخذت الفتاة استراحةً من العمل وابتسمت ببهجة ثم قالت: «يناسبك جداً يا أبي! ما الذي يناسبك يا أبي؟»

قال وهو يرى تأثير كلامه في وجهها البريء: «أنا أشعر بالخجل لارتدائه حقاً! عندما استمع إلى الأولاد والأشخاص وهم يتحدثون من ورائي «يا إلهي! يا له من تَفاخر!» لا أعلم إلى أيّ وِجْهة أنظر. وعندما لم يقبل المتسول المغادرة، وعندما قلت له إنني رجلٌ عادي قال لي «لا، سيادتك! باركك الله لا تقل هذا!» كنتُ خجولاً جداً، شعرت كأنّه ليس لدي الحق في ارتدائه».

فتاةٌ لا تُبصر ولكنها سعيدة! مسكينة كم كانت مبتهجة.

قالت وهي تضم يديها: «أراك يا أبي بوضوح، كما لو أنّه كان لديّ عينان أبصر بهما. معطفٌ أزرق...»

قال كاليب: «أزرق فاتح».

هتفت الفتاة وقد صار وجهها يَشِعُّ من السعادة: «أجل، أجل، أزرق فاتح! اللون الذي يمكنني تذكره من السّماء المُباركة! أخبرتَني من قبل إنّ لونه أزرق! معطفٌ أزرق فاتح...»

اقترح كاليب عليها: «جَعَلَه مُناسباً للجسد!».

قالت الفتاة الصّغيرة وهي تضحك من قلبها: «جَعَلَه مُناسباً للجسد! وأنت يا أبي العزيز بعينيكَ الجميلتين، ووجهك الضحوك، وخطوتك الخفيفة، وشعرك الغامق، تبدو يافعاً وجميلاً!»

قال كاليب: «جميل! جميلٌ حقاً! أظنّ أنني سأكون مغروراً قليلاً في الوقت الحاضر».

قالت الفتاة الكفيفة وهي تشير إليه بسعادة: «أعتقد أنّك كذلك من قبل. أنا أعرفك جيداً يا أبي! ها هاها! كَشفتُك كما ترى!».

كيف كانت الصورة تختلف في ذهنها صورة كاليب، وهو جالس يراقبها! لقد تحدثت عن خطوته الخفيفة، وقد كانت محقة في ذلك. لسنواتٍ وسنوات، لم يَسبق له أنْ تجاوز هذه العتبة بخطواتٍ بطيئة خاصةٍ به، إلّا كانت تنتبه لها. ولم يسبق له قطُّ، حتى عندما كان قلبه مُثقلاً أنْ ينسى إشعال الضوء ليزرع البهجة والقوة في قلب فتاته الصّغيرة!

الله يعلم! بالنسبة إليّ فأنا أعتقد أنّ حيرة كاليب قد تكون قد نشأت بسبب خلط نفسه بكل شيءٍ حوله من أجل حبه لفتاته الكفيفة. كيف يمكن لهذا الرّجل ألا يكون حائراً بعد العمل سنواتٍ

عديدة وقد تم فيها تدمير هويته الخاصة، وأنّ جميع الأشياء التي كان لها تأثيرٌ فيه كان لها التأثير نفسه فيها!

تراجع كاليب مرةً أو مرتين ليأخذ حُكماً أفضل على عمله وهو يقول: «ها نحن ذا، هذا أقرب شيءٍ إلى الحقيقة وأقرب ما يكون إلى بنسٍ واحد أو إلى ستة بنسات. يا لها من شفقةٍ كبيرة أنْ يُفتح البيت كلّه في وقتٍ واحد! إذا لم يكن سوى درجٍ فيه، والآن هنالك الأبواب العادية التي تؤدي إلى الغرف! يا إلهي، هذا أسوأ شيءٍ في عملي. أنا دائماً ما أُضلل نفسي وأخدعها».

«أنت تتحدث بهدوءٍ شديد، ألست مُتعباً يا أبي؟»

ردد كاليب وهو ينظر إلى مجموعة من الرسوم: «مُتعب! ما الذي يمكنه أنْ يُتعبني يا بيرثا؟ لم أكن مُتعباً يوماً. ما الذي يعنيه كلامك هذا؟»

ولإعطاء نفسه قوة أكبر؛ تفحص نفسه في تقليدٍ كان يفعله كل مرةٍ ليرى إنْ كان مُتعباً حقاً أم لا. يَمدُّ جسده مرةً أو مرّتين ويتثاءب وهو ينظر إلى الأعلى. وبدأ يدندن جزءاً من أغنية، كانت أغنية مُعربدة، شيءٌ ما عن وعاءٍ فوّار. غناها بافتراضٍ أنّه يقلد صوت الشيطان، وتلك الأغنية جعلت وجهه يبدو ضعيفاً ألف مرة من قبل وأكثر تفكيراً من أي وقتٍ مضى.

قال تاكلتون وهو يُدخل رأسه من الباب: «ماذا! أنت تغني، هل أنت؟ هيا الآن! أنا لا أستطيع الغناء».

لا أحد يشكُّ في هذا مُطلقاً. لم يكن لديه ذلك الوجه الغنائي بأي شكلٍ من الأشكال.

قال تاكلتون: «لا أستطيع تحمل الغناء، أنا سعيدٌ لأنك تستطيع ذلك. آملُ أنْ تكون قادراً على تحمل العمل أيضاً. الوقت صعبٌ عليكما أليس كذلك؟»

همس كاليب لابنته: «لو كنتِ تستطيعين رؤيته فحسب يا بيرثا وهو يغمز في وجهي! هذا الرّجل يجيد المُزاح! كنت أعتقد لو أنّكِ لا تعلمين من هو لظننت أنّه قاسي وجِدّي».

ابتسمت الفتاة الكفيفة وهزّت رأسها.

تذمر تاكلتون: «إنّ الطائر الذي يجيد الغناء ولا يغني، يجب إجباره على الغناء؛ أو هكذا يقولون. ولكن ماذا عن البومة التي لا تجيد الغناء وليس عليها أنْ تغني، ولكنها ستغني؛ هل هناك أي شيءٍ يمكننا القيام به إزاء هذا الأمر؟»

همس كاليب إلى ابنته مجدداً: «لو ترين هذه الغمزة في هذه اللحظة! آه يا رحيم!»

قالت بيرثا مبتسمة: «إنّه مرحٌ معنا دوماً وخفيف الظل!»

قال تاكلتون: «آه أنتِ هناك أليس كذلك؟ الفقيرة البلهاء!»

كان يعتقد أنها بلهاء. لا أستطيع أنْ أجزم ما إنْ كانت بوعيها أم لا، ولكنها كانت تحبه جداً.

قال تاكلتون: «حسناً! لكونكِ هنا كيف حالكِ؟»

«أوه حسناً، بخير. سعيدة أكثر مما يمكنك أنْ تتمنى لي. سعيدة وكأنّك إن استطعت ستجلب العالم وتضعه بين يديّ!»

قال تاكلتون في نفسه: «الفقراء بُلَهاء! ليس هنالك ذرة عقل واحدة لديهم!».

أمسكت الفتاة العمياء بيده وقبلتها وعقدت يدها بيده لحظةً، ثم وضعت خدها على كفه بحنان قبل أنْ تُفلِتها. كان هنالك مودة لا توصف وامتنانٌ شديد بالفعل، مما جعل تاكلتون يقول في نفسه: «ما الأمر الآن؟»

«وقفتُ البارحة بجانب وسادتي عندما ذهبت إلى النوم، ولكنني تذكرت أحلامي. وعندما أشرقت شمس صباح اليوم، تلك الشمس الحمراء المجيدة - الشمس الحمراء أليس كذلك يا أبي؟»

قال كاليب المسكين مع نظرة بغيضة إلى صاحب العمل: «الشمس حمراء في الصباح والمساء يا بيرثا».

«عندما أشرقتْ ودخل الضوء السّاطع إلى غرفتي والذي كنت أخشاه تقريباً، وَضعتُ الشجرة نحوه، واعتقد أنّ السّماء باركتنا لصنع أشياء ثمينة».

قال تاكلتون هامساً: «كسرٌ وهرجٌ ومرج! إلى أين سنصل يا ترى. نحن نتقدم من غير شك!».

كاليب بيديه المعقودتين إحداهما بالأخرى، يحدق إليه وابنته تتحدث. كما لو كان غير متأكد (وأعتقد أنّه كذلك) ما إذا كان تاكلتون قد فعل شيئاً يستحق عليه كل هذا الشكر أم لا. لو كان بإمكان كاليب أنْ يكون شخصاً حُرّاً الآن لوقف على حساب موته وركل صانع الألعاب وأسقطه على قدميه، أعتقد أنّها كانت ستكون

فرصةً متساوية له. ومع كل هذا، فقد كان كاليب يعلم بأنّه هو من أحضر منزل الشجرة الممتلئ بالورود لابنته الصغيرة.

قال تاكلتون مفترضاً أنّه هنالك ودٌّ بينهما: «بيرثا! تعالي إلى هنا!»

قالت له: «أوه! يمكنني أنْ آتي مباشرةً إليك لا تحتاج أنْ تقودني!».

«هل أخبركِ بسرٍّ يا بيرثا؟»

أجابته بفارغ الصبر: «إنْ شئت!».

ذلك الوجه المعتم أشرق! تزين بالضحكة البريئة.

قال تاكلتون بتعبيرٍ قوي وكريه: «هذا هو اليوم الذي تأتي فيه تلك المرأة –التي لا أذكر اسمها– زوجة بيري بينغل وطفلها المدلل لزيارتكم بشكلٍ منتظم، مما يجعله نزهةٍ رائعة، أليس كذلك؟»

أجابته بيرثا: «نعم، هذا هو اليوم».

قال تاكلتون: «أعتقد أني أود الانضمام إليكم».

صاحت الفتاة الكفيفة في سعادةٍ غامرة: «هل تسمع هذا يا أبي!»

قال كاليب في نفسه وعيناه مثبتتان على صانع الألعاب: «أجل، أجل، أسمع ذلك. لكنني لا أصدقه، لا بد أنّها من غير شك إحدى الأكاذيب».

قال تاكلتون: «أترى، أنا أريد أنْ أجعل آل بيري بينغل يتعرفون إلى ماي فيلدينغ، سوف أتزوجها».

صرخت الفتاة الكفيفة وهي تنظر باتجاهه: «تتزوج!»

حدّث تاكلتون نفسه: «إنّها كالبلهاء، ظننت أنّها لن تفهمني مطلقاً. آه يا بيرثا! زواج! وكنيسة، وكاهن، ورجل دين، وشمّاس الكنيسة، ومسؤول العربات، والأجراس، والإفطار، وكعكة الزفاف، والخدمات، واللحم، والزينة، وكل هذه الأمور السخيفة والتافهة. زفاف، أنتِ تعلمين حفل الزفاف، ألا تعرفين ما هو حفل الزفاف؟»

أجابته الفتاة الكفيفة بنبرة رقيقة: «أنا أعلم ما هو وأفهم جيداً!»

قال تاكلتون مجدداً: «هل تفعلين؟ آه حسناً، هذا أكثر مما كنت أتوقعه. ولهذا فأنا أريد الانضمام إليكم، أريد أنْ أجلب ماي ووالدتها. سأرسل شيئاً ما قبل ظهر اليوم. لربما ساقٌ باردة من لحم الضأن، أو بعض الأمور الأخرى من هذا النوع. هل توقعتِ هذا مني؟»

أجابته: «أجل فعلت».

وضعت يديها على رأسها وعادت إلى الخلف قليلاً، ووقفت تأخذ نفسها بصعوبة.

قال تاكلتون وهو ينظر إليها: «لا أعتقد أنكِ فعلتِ ذلك، يبدو أنكِ نسيت كل شيء بالفعل. يا كاليب!»

قال كاليب: «قد أجرؤ على قول هذا يا سيدي».

«خذ حذرك لئلا تنسى هي ما كُنتُ أقوله لها».

أجابه كاليب: «إنّها لا تنسى أبداً. قد أقول إنّ النسيان واحد من الأشياء القليلة التي لا تبرع فيها».

قال صانع الألعاب دون مبالاة: «كل رجلٍ يُفكر ببجعاته الخاصة. أيها المسكين!».

بعد أنْ أبدى ملاحظاته بازدراءٍ شديد فقد انسحب غراف وتاكلتون من الغرفة.

بقيت بيرثا في مكانها دون حراك، تتأمل بعمقٍ شديد. اختفت الابتسامة من وجهها الجميل، وكانت حزينةً جداً. ثلاث مرات أو أربعاً هزت رأسها وكأنّها تتذكر أموراً أو بعض الخسائر في حياتها. لكن حزنها هذا لم يكن ليخرج على هيئة كلماتٍ قطُّ.

لم تتكلم حتى بدأ والدها يضع فِرق الخيول التي شكّلها في العربة، حتى اقتربت إلى كرسي عمله وجلست بجانبه ثم قالت:

«أبي، أنا وحيدةٌ في هذا الظلام. أريد عينيّ، أريد خلاصي الأبدي، أريد عينين أرى بهما».

قال كاليب: «ها هم عزيزتي، دائماً مستعدين. إنّهم ينتمون إليكِ أكثر مني يا بيرثا، وهم لكِ في أي ساعة شئتِ من الأربع والعشرين ساعة. ما الذي يمكن أنْ تفعله عيناك من أجلكِ يا عزيزتي؟»

«التأمل في الغرفة يا أبي».

قال كاليب: «لكِ الحق كله لفعل ذلك يا بيرثا».

«حدثني عنها».

قال كاليب: «المُعتاد يا عزيزتي. بيتٌ صغير ولكن دافئٌ جداً. ألوان مُبهجة على الجدران، زهورٌ زاهية في اللوحات وعلى الأطباق. وهناك خشبٌ لامع حيث العارضة. بهجة عامة ونظافة في المبنى يجعلها جميلة جداً».

كانت البهجة الحقيقية والأناقة في المكان الذي تعمل فيه يدا بيرثا، ولكن في مكانٍ آخر، كان يمكن أنْ تكون هناك بهجة قليلة، حتى في الحظيرة القديمة التي كان يقطن فيها كاليب قديماً.

قالت بيرثا وهي تضع يدها عليه: «لديك لباس العمل الخاصّ بك، ولكنني أشك في أنّه أنيقٌ مثل المعطف الجميل عندما ترتديه؟»

أجاب كاليب: «من غير ريب هو ليس أنيقاً كالمعطف، على الرغم من كونه مُنعشاً لي نوعاً ما».

قالت فتاته الكفيفة وهي تقترب من جانبه وتضع إحدى يديها حول عنقه: «أبي، حدثني عن ماي. هل هي جميلة؟»

قال كاليب، وقد كان غريباً بعض الشيء بالنسبة إليه ألّا يُضطر إلى الاعتماد على اختراعاته في مثل هذه المناقشات: «هي كذلك في الواقع».

قالت بيرثا وهي تفكر: «شعرها غامق اللون، بل أغمق من شعري. صوتها شاعري ورقيق، أعلم هذا لأنني أحببت سماعه دائماً. شكلها...»

قال كاليب: «ليس هنالك في كل الغرفة دمية تُضاهيها، وعيناها! ...»

توقف عن الكلام حين اقتربت أكثر من عنقه وتشبثت به بحزمٍ أكبر. جاء هذا الضغط منها كتحذيرٍ فَهِمَهُ كاليب جيداً.

سَعل لحظةً، هُزم لحظةً ثم عاود الغناء بأغنيته حول الوعاء الفوّار، مصدره الوحيد للفرار من وجه هذه الصعوبات.

قالت بسرعة: «صديقنا يا أبي، المتبرع لنا. أتعلم؛ أنا لا أشعر بالتعب أبداً عند الحديث عنه. هل أحسَست يوماً بأنّي شعرت بالملل؟»

أجاب كاليب: «من غير شك لا! وذلك لأسبابٍ عدة».

قالت الفتاة الكفيفة: «آه! كم هي هذه الأسباب؟»

وبهذه الغبطة فإنّ كاليب على الرغم من أنّ دوافعه كانت طاهرة جداً، إلا أنّه لم يتحمل النّظر في وجهها قطّ وأسْقَطَ عينيه، كما لو أنّها كانت قد قرأت لغة عينيه البريئتين.

قالت بيرثا: «أخبرني به مرةً أخرى يا أبي العزيز. مراتٍ عديدة وعديدة! أريد الحديث عنه مطولاً! وجهه اللطيف، المليء بالعطاء والخير. أترى، أنا متأكدة ممّا أقوله. لديه قلب رجولي يحاول أنْ يحمي كل من حوله بإظهار الخشونة وعدم الرغبة بفعل ذلك، ولكنه في الحقيقة رقيق القلب وحنون».

أضاف كاليب إلى كلامها بيأسٍ شديد وهدوءٍ كبير: «ويجعل مظهره شهماً شهامة بالغة!»

صاحت الفتاة الكفيفة: «ويجعله شهماً جداً! أبي أليس هو أكبر سناً من ماي؟»

قال كاليب: «أجل يا صغيرتي، إنّه بالفعل أكبر من ماي. ولكنّ هذا ليس مقياساً لشيء».

«أجل يا أبي! يجب أنْ تكون رفيقته في المرض والعَجز والكِبر؛ أنْ تكون ممرضته اللطيفة حين يمرض، وصديقته في الحزن والمعاناة. لا يشعران بالضجر حين يكونان معاً، تعمل من أجله ويعمل من أجلها، يَميل أحدهما إلى الآخر ولا يَملّان. تجلس بجانبه في السرير ويتحدثان، تبقى مستيقظةً معه حين لا يستطيع النوم، وحين ينام تُصلي وتدعو لأجله. ما هي الميزات في هذه الأمور؟ ما هي احتمالات حدوث هذا معه؟ هل ستكون صادقة وتقف معه بكل هذه الظروف؟ هل سَتفعل هي كل هذا يا أبي العزيز؟»

قال لها كاليب: «لا شك في هذا يا بُنيتي».

هتفت الفتاة الكفيفة: «أنا أحبها يا أبي، وأستطيع أنْ أحبها من أعماق روحي!»

وبعد قولها هذا فإنها وضعت وجهها البريء في حضن كاليب وبكت بحرقة حتى كاد كاليب يكون آسفاً لإحضاره السّعادة المشؤومة والملعونة إليها.

في الوقت نفسه، كان هنالك اضطراب كبير وحادّ بين جون بيري بينغل والسّيدة بيري بينغل لعدم قدرتها على الخروج إلى أي مكان دون تواجد الطفل بين ذراعيها. كان خروج الطفل معهما

سيشكل عبئاً كبيراً عليهما. كأنّه ليس هناك الكثير من الأطفال، هم يتحدثون عنهم كشيءٍ يمكن توزينه أو قياسه، ولكن كان هنالك صفقة واسعة للقيام بهذا، وكان يجب القيام به على الطريقة السّهلة. على سبيل المثال؛ حين يكون الطفل مُشاغباً وكثير الحركة، وحين تودّ أنْ تُلبسه قطعة الملابس، قد تفترض أنّ لمسة حانية واحدة أو لمستين ستهدئه وتنتهي منه؛ ولكنك تكتشف أنّ رأس الطفل سيتحداك في مصارعةٍ لإدخال الفانيلا، فيندفع إلى السرير، وخلال ثانيتين سترى بأنّه قد أصبح مُختبئاً بين بطانيتين على الأقل. بعد هذه الحالة من التقاعس، تبدأ بالمناداة على الطفل، ستُضطر ربما إلى الصراخ بشكلٍ عنيف حتى تُنهي مهمتك، هل ستتدخل هنا؟ أفضل أنْ أقول، إذا سمحتم لي بالتحدث بشكلٍ عام-عن شيءٍ بسيط يحدث دائماً. بعد هدنة، ذهب الطفل للنوم وقررت السّيدة بيري بينغل أنْ تستفيد من هذا الفاصل القصير لتصبح ذكية بطريقة لم تكن لتتصورها أبداً. وخلال هذه الفترة القصيرة نفسها، تسللت الآنسة سلوبوي إلى ذهنها لتدخل عالم الأزياء المدهش والرائع، إلى درجة أنّها كانت منفصلة عن العالم الحقيقي، أو أي شيء أخر في الكون. وفي حقيقة الأمر كانت مستقلة، ومنعزلة، وتتابع مسيرتها دون أي أدنى اعتبار لأي شخص. في هذا الوقت، فإنّ الطفل قد عاد إلى وعيه مجدداً واستيقظ من نومه، وبالجهود المُظفرة من السّيدة بيري بينغل والآنسة سلوبوي كان الطفل محمولاً بغطاء بلون الجسد، وبقبعة على شكل فطيرة. وهكذا؛ توجه ثلاثتهم إلى الباب حيث كان الحصان القديم قد أخذ بالفعل أكثر من القيمة الكاملة لحصيلة يومه الشّاق في العمل، عن طريق شق الطريق بصبرٍ وتحملٍ

شديد، ومن الخلف يقف بوكسر بشكل خافت من المنظور البعيد، يغريه بالقدوم دون أوامر.

أما بالنسبة إلى الكرسي، أو أي شيءٍ قد يساعد السّيدة بيري بينغل على الصعود إلى العربة؛ فأنتَ لا تعلم سوى القليل عن جون إنْ كنت تعتقد أنّ ذلك ضروري. وقبل أنْ تتمكن من رؤيته وهو يرفع دوت عن الأرض، حيث كانت في مكانها، شابةً ووردية، فقالت: «جون! كيف أمكنك فعل هذا؟ فكر في تيلي!».

إذا سُمح لي أنّ أذكر ساقي شابة جميلة، بأية شروط خاصة، فأريد ذكر ساقي الآنسة سلوبوي التي تُعتبر ملكة جمال. ولكن هذا كان يُعرضها للمشاكل دوماً، إذ كانتا حساستين وعرضة للخدش بسهولة. لم تكن تُخاطر بشيءٍ إلا وتَلْقى العقوبات من فعله. مثل قدميها كمثل روبنسون كروزو حين كان يسجل تقويمه على الخشب، شقوق وجروح في كل مكان. قد لا يُعتبر هذا الأمر مرموقاً، ولكنني سأفكر في الأمر.

قالت دوت: «يا جون، هل أحضرت سلة التنزه، ولحم العجل وفطيرة لحم الخنزير وكل هذه الأمور، وأيضاً زجاجات الجَعة؟ إنّ لم تفعل هذا فأنصحك بالاستدارة هذه اللحظة والعودة لتحضرها!».

أجابها جون الكافل: «كم أنتِ لطيفةٌ حقاً. أتخبرينني أنْ أعود أدراجي في هذه اللحظة بعد أنْ أصبحت على بعد ربعِ ساعةٍ من المنزل!».

قالت دوت بنشاط: «اعتذر إليك من هذا يا جون. ولكنني لا أتخيل حقاً أنْ أذهب إلى بيرثا دون سلة التنزه: لحم العجل وفطيرة

لحم الخنزير والأمور الأخرى، وأيضاً زجاجات الجعة. لا أتخيل هذا يا جون أبداً!»

كما لو أنّ الكلام أحادي المقطع، ها قد وصل إلى الحصان، الذي لم يكن يمانع حدوث هذا.

قالت السّيدة بيري بينغل: «هيّا يا جون، أرجوك!».

أجابها جون: «سيكون هنالك وقتٌ كافي لفعل هذا، حين بدأت أنسى الأغراض خلفي. السّلة هنا بأمان وعافية».

«يا لكَ من مزعجٍ وثقيل الظل يا جون. ألم يكن من الأسهل لو قلتَ لي هذا من الأساس وأرحتني من وجع القلب الذي أصابني! كنت سألغي الرّحلة إلى بيرثا دون سلة التنزه: لحم العجل وفطيرة لحم الخنزير والأمور الأخرى، وزجاجات الجعة، ولم أكن سأذهب بمقابل مال العالم أجمع. كنا نذهب بانتظامٍ كل أسبوعين منذ زواجنا يا جون لنقوم بهذه النزهة الصّغيرة. إنْ كانَ هنالك شيءٌ سيّئ واحد سيحصل، لظننت أنّ الحظ سيفارقنا إلى الأبد».

قال الكافل: «لقد كان شيئاً لطيفاً أن نفعل هذا في المقام الأول. ولكِ احترامي كله لفعل هذا أيتها الشّابة».

أجابته دوت وهي تحمرّ خجلاً: «عزيزي جون، لا تتكلم بهذا الأمر. يا رحمة الله الواسعة!».

قال الكافل وهو يتأمل: «بمناسبة الوداع، ذلك الرّجل العجوز...»

مرةً أخرى بشكلٍ واضح، ومحرجٍ تماماً.

أكمل الكافل وهو ينظر إلى الطريق أمامهم: «إنّه غريب الأطوار. لا أستطيع أنْ أخرجه، لم أستطع أنْ أفكر في أنّه قد يشكل تهديداً أو خطراً علينا».

«لا شيء على الإطلاق، أنا متأكدة من ذلك».

قال الكافل وعيناه منجذبتان نحو وجهها من طريقة كلامها: «أجل، أنا سعيدٌ لأنكِ واثقة بهذا الأمر، لأنني لست متأكداً حتى هذه اللحظة. من الغريب أنّه وصل إلى ذهنه فكرة أنْ يطلب السّكن معنا، أليس كذلك؟ الأمور تصبح غريبةً أكثر فأكثر».

همست بصوتٍ خافت يكاد لا يُسمع: «غريبة إلى حدٍ كبير».

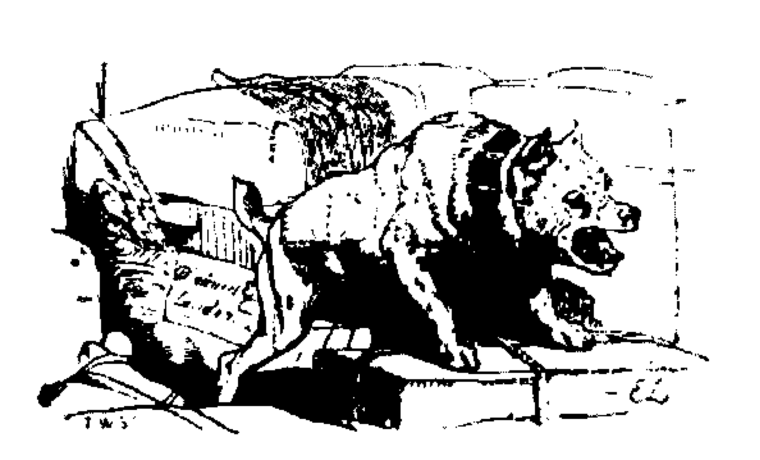
قال جون: «على أية حال، إنّه رجلٌ عجوز لطيف. ويدفع مقابل ما يُقدَّم إليه من خدمات، إنّه رجلٌ بِحَقّ. وأعتقد أنّ كلمته يُمكن الاعتماد عليها بوصفه رجلاً حقيقياً. كان لي حديثٌ طويل معه هذا الصّباح، يقول: إنّه يستطيع أنْ يَسمعني بشكلٍ أفضل، لأنّه اعتاد على صوتي أكثر فأكثر. أخبرني بالكثير عن نفسه، وبالمقابل فقد أخبرته بالكثير عن نفسي أيضاً، وسألني مجموعة من الأسئلة النّادرة. أعطيته بعض المعلومات عن كون عملي يسير بخطين، كما تعلمين: يومٌ من اليمين حتى البيت والعودة مجدداً، ويومٌ آخر من يسار البيت والعودة مرةً أخرى (إذ إنّه غريب ولا يعلم أسماء الأماكن هنا)، وقد بدا مسروراً حقاً. قال: «إذن، عليّ العودة هذه الليلة إلى المنزل من طريقك، عندما ظننت أنّك ستأتي بالاتجاه المعاكس تماماً. هذا محتمل! قد أوقعك في مشاكل أخرى معي مجدداً،

ولكنني سأبذل جهدي كي لا أقع في النّوم مجدداً». ولكنه كان يبدو من صوته دون شك ناعِساً! دوت، ما الذي تفكرين فيه؟»

«أفكر فيه يا جون؟ أنا أستمع إليك».

قال الكافل الصادق: «أوه، لا بأس بذلك! لقد ظننت أنني انجرفت في الكلام كثيراً، نظراً لتلك التعابير على وجهكِ. لقد ظننت أنّكِ بدأت تفكرين الأمور على نحوٍ مختلف. لقد كنتُ سريعاً إلى هذا، سأتقيد أكثر».

لم تعطه دوت أي إجابة، وأمضيا فترة قصيرة كانا فيها يسيران بصمتٍ شديد. ولكن في عربة بيري بينغل، يستحيل أنْ يمضي الوقت بصمت؛ لأنّ جميع من في العربة لديهم شيءٌ ما ليقولوه. على الرغم من كون أغلب الكلام «كيف حالك؟» وفعلاً؛ في معظم الأوقات لم تكن أكثر من ذلك؛ كانت هنالك محاولة إعادة روح الوئام والصّداقة، ليس الإيماء والابتسامة فحسب، ولكن التحدث وإبقاء الرئتين في حالة العمل الجيد، كخطابٍ برلماني طويل الأمد.



أحياناً، فالمسافرون سيراً على الأقدام أو في العربات، يلتصق بعضُهم ببعض لغاية الحديث والتسلية في أثناء الطريق، ولكن حين ينتهي كل هذا تراهم يجلسون في جوانب العربة على حد سواء.

أما بالنسبة إلى بوكسر، فقد أجاز للكافل أنْ يعترف له بأحاديث كثيرة، لربما أكثر مما فعله المسيحيون أجمع! كان معروفاً لدى الجميع على طول الطريق، خاصة الطيور والخنازير. وحين يرونه آتياً من بعيد، بجسده بالكامل يستندُ إلى جهةٍ واحدة، وأذناه تهتزان كأنّه يَتصيدُ شيئاً ما، وقبضة ذيلٍ من حجمها تجعل نصفه في الهواء، فهذه الحيوانات تنسحب فوراً إلى المستوطنات الخلفية النائية؛ دون انتظار شرف مقابلته عن قرب. كانت لديه أعمال بكل مكان، إنّه كلب أعمال. يسير في كل المنعطفات، وينظر في جميع الآبار، ويشق طريقه إلى داخل البيوت الرّيفية وخارجها، وهو أيضاً يقتحم وسط المدارس، ويُرعب الحَمامَ فيرفرف بعيداً، ويُطارد ذيول جميع القطط، ويهرول إلى المنازل العامة وكأنّه زبونٌ عادي. أينما يذهب، لا بدّ أنْ تسمع أحدهم يُنادي ويقول «إنّه بوكسر! إنّه هنا!» وترى مجموعة أخرى قادمة مُلبيةً النداء وأيضاً لإلقاء التحية على جون بيري بينغل وزوجته الجميلة.

كان عدد الحُزم والطرود في العربة كثيراً، وكان هنالك محطاتٌ كثيرة للتوقف عندها: للتنزيل والتحميل، وللأخذ والإيصال، الذي لم يكن بدوره أسوأ شيءٍ في العمل. بعض الأشخاص كانوا يتوقعون تماماً ما هي طرودهم الخاصة، والبعض الآخر لم يكن لديه أي فكرة عن طرده وما يحمله له. وكان لدى جون اهتمام خاص بكل طرد، فكان الأمر بالنسبة إليه أشبه بلعبة يستمتع بها ويتقنها.

وبالمثل، فكانت هنالك مقالاتٌ لحملها، الأمر الذي يتعين النّظر إليها ومناقشتها، إمّا بالإشارة إلى التعديل والتصرف بها، وإما بالتخلص منها، فعلى المجلس أن يحوز على الكافل والمرسل، وهو الأمر الذي يُساعد به بوكسر أحياناً؛ بوصفه نوبات قصيرة من الاهتمام عن قرب، ونوبات أخرى طويلة من الحراسة والنباح الأجش والغليظ. من بين كل هذه الحوادث الصّغيرة، فقد كانت دوت هي الوحيدة المُستمتعة وهي تنظر من داخل العربة، ولمّا كانت تجلس هناك وتنظر إلى صورة خلابة بإطارٍ مثيرٍ للإعجاب، فلم يكن هنالك أي همسٍ أو حَسد أو مشاجرة بين الرّجال الأصغر سناً. وقد أدخلَ هذا السرور إلى قلب جون إلى درجة لا يمكن تصورها؛ إذ إنّه كان فخوراً بحضور زوجته الشّابة معه، وهي المثيرة للإعجاب، مع العلم أنّها لم تمانع أمراً إذا أحبَّته كثيراً.

كان الطريق أمامهم ضبابياً قليلاً، بل كان الطقس شتوياً (يناير)، بارداً وبليداً. ولكن من يهتم بمثل هذه التفاهات؟ يقيناً فلم تكن دوت. ويقيناً فليست تيلي سلوبوي إذ إنّها تعتبر ركوب العربة أحدَ مُتع الحياة التي لا يُمكن تفويتها، وظاهرة تاجية لآمالٍ دنيوية، وليس الطفل من غير شك وأقسم على هذا، لأنّه ليس من طبيعة الطفل أنْ يكون وحده أكثر دفئاً أو نائماً باعتدال أكبر؛ على الرغم من قدرته العالية والفائقة في المجالين، على عكس ذلك الشاب «بيري بينغل» على طول الطريق.

في الضباب، لا يمكنك أنْ ترى على مسافةٍ بعيدة ولكن يمكنك أنْ ترى أموراً مذهلة! إنّه لأمر مذهل كم يمكنكم الرؤية في ضباب أكثر كثافة من هذا، إذا كنت فقط ستتحمل عناء البحث

عنه. عندما تجلس وتشاهد جنية الخواتم في الحقول، وبقعة الصقيع المتجمدة، تلك التي لا تزال ثابتة في الظل قرب السياج والأشجار؛ فتلك كانت مهمة مسلية: لعدم ذكر الأشكال غير المتوقعة التي ترسمها الأشجار في الضباب.

كان سياج الشجر متشابكاً وأعزلَ، وعددٌ كبير من أكاليل الزهر يترنح مع الرّياح القوية، ولكن مع كل هذا فلم يكن هنالك أي تثبيط للعزيمة. كان مقبولاً إلى حد ما للتفكير، لأنّه جعل المدفأة التي بحوزتهم أكثر دفئاً، وخضرة الصّيف المتوقعة أكثر مُتعة. بدا وكأنّ مياه النّهر باردةٌ جداً، ولكنه كان في الشعور فقط، مما جعلهم يتحركون على وتيرة جيدة، إلى نقطة أكثر إيلاماً. كانت القناة بطيئة وباردة نوعاً ما، وهي التي يجب أنْ يُسلِّم بها. لا تهتم بهذا أبداً. سوف يتجمد عاجلاً أم آجلاً حين يتغلغل الصقيع إلى إعماقه. وهناك سيكون تزلج، وانزلاق، وصنادل قديمة وثقيلة مجمدة في مكان ما بالقرب من الرَّصيف؛ وهذا من شأنه أنْ يشعل أنابيب المداخن الصَّدِئة طوال اليوم، فيعود الكسل من جديد.

في مكانٍ على الطريق، كانوا يستطيعون رؤية تلةٍ كبيرة من الأعشاب أو الأنقاض المُحترقة، والنّار فيها تبدو باللون الأبيض من كثرة الضباب حولهم وكان هنا وهناك اندفاعات بسيطة للّون الأحمر مع سُحُب من الدخان «الذي وصل إلى أنفه» للآنسة سلوبوي التي اختنقت، ولكنها لم تتمكن من أنْ تفعل أي شيء، مما أثار غضبها كثيراً – فأيقظت سلوبوي الطفل الذي لن يعود إلى النوم مجدداً. أما عن بوكسر، فقد كان يسبقهم بحوالي ربع ميل، ووقف في زاوية الشارع الذي يسكن فيه كاليب وابنته. وقبل أنْ

يَصلوا إلى الباب وجدوا الفتاة الكفيفة وبوكسر يقفان على الرّصيف في انتظار وصولهم.

بالمناسبة، فقد كان لبوكسر طريقة فريدة وخاصة به للتواصل مع بيرثا، وهو الذي أقنعني أنا شخصياً بمعرفته كونَها كفيفة، فلم يكن يجذب انتباهها بالنّظر إليها كما كان يفعل مع الآخرين، ولكنه كان يقترب منها ويلمسها بثبات. ولكن ما الخبرة التي كان يمكن أنْ يمتلكها للأشخاص غير المبصرين وللكلاب غير المبصرة أيضاً؟ في الحقيقة لا أعلم. لم يَعِش بوكسر يوماً مع مالكٍ أعمى، ولم يمكن معه السّيدُ بوكسر والده، أو والدته السّيدة بوكسر، أو أي أحدٍ من طرف عائلته المُحترمة. لم يعمل أحدٌ ما يوماً لدى أحدٍ لا يُبصر، أو أن يزوره أحد ما أعمى، وهذا يبعث الشّك في نفسي. لربما اكتشفَ الأمرَ بنفسه وتمسك به، أو تمسك ببيرثا فقط. في ذلك الوقت أمسك بتنورتها وبقي مُمسكاً بها حتى دخلت بأمانٍ إلى المنزل السّيدةُ بيري بينغل والطفل، والآنسة سلوبوي وسلة التنزه.

كانت ماي فيلدينغ ووالدتها قد وصلتا بالفعل؛ إنّ والدتها امرأة مُسنّة ذات وجهٍ بطبع حاد، ولديها خصرٌ منحوت كالميليكان. هذه المرأة كان يُتوقّع لها أن تكون ذات شخصية متفوّقة بارزة لولا الظروف الصعبة التي أحاطت بأسرتها، غراف وتاكلتون كان هناك أيضاً، يتصرف كأنّه في منزله، ومما لا شك فيه فقد كان كالملك الأكبر فوق قمة الهرم الأعظم.

صاحت دوت وهي تركض تجاه صديقتها: «ماي، يا صديقتي القديمة والعزيزة! كم تغمرني السعادة عند لقائكِ».

صديقتها القديمة، كانت مثلها تماماً فَرِحة وممتنّة لهذا اللقاء العفوي بينهما. لقد كان منظراً يُبهج القلبَ رؤيتُهن وهن يتعانقن شوقاً. بعد كل هذا، تبيّن أنّ تاكلتون شخصٌ ذو ذوق رفيع، وأنّ ماي جميلةٌ حقاً.

هل تعلم، فأحياناً حين تعتادُ على رؤية وجهٍ جميل ثم ترى نفسكَ تنظر فجأة إلى وجهٍ أجمل بكثير، فمن الطبيعي أنْ يختفي ويتلاشى الجمال الأول. ولكن في هذه الحالة النادرة هنا، فإنّ جمال ماي كان يُخفي جمال دوت، وبالمقابل فإنّ جمال دوت يُخفي جمال ماي، فلا تعرف إلى أين تنظر، الجمالُ في كل وجهة. مما دفع جون بيري بينغل أن يقول حين رآهما معاً: إنهما خُلِقتا شقيقتين - فلا شيء يُفسر هذه الحالة إلا هذا الأمر.



أحضر تاكلتون طعاماً من ساق لحم الضأن، وتورتة جميلة ووضعه على المائدة - في الواقع، فنحن لا نمانع التبذير قليلاً في حالة وجود عرائسنا الجميلات، فنحن لا نتزوج كل يوم. وبالإضافة إلى هذا الطعام اللذيذ، كان هنالك سلة التنزه وفطيرة لحم الخنزير، و«أمورٌ أخرى» كما تُسميها السّيدة بيري بينغل، وهي تتكون من المُكسّرات، والبُرتقال اللذيذ، والكعك، وبعض لحم الغزال. عندما تم نَصبُ المائدة، أُحيط بها مُساهمة كاليب، والتي كانت طبقاً كبير من البطاطا المُدخنة (كان محظوراً عليه بتعاقدٍ رسمي أنْ يطبخ للاحتفالات أي نوعٍ أخر من البطاطا). قاد تاكلتون والدة زوجته إلى كرسيها المُشَرِّف. ومن أجل تشذيب المكان ليصبح أفضل، لتلك الرّوح المسنة فقد تزينت الطاولة بغطاءٍ مَهيب وفاخر، لِتُلهِم المَشاعر؛ فبالنسبة إلى هذه المرأة المُسنّة التي ارتدت قفازاتها الفاخرة، فلديها قاعدة لا تتهاون بها: إما أنْ نكون متميزين أو نموت!

جلس كاليب بالقرب من ابنته، وجلست دوت بالقرب من صديقتها المقربة، وتولى الكافل المحترم رعاية الجزء الخلفي من المائدة. أما بالنسبة إلى الآنسة سلوبوي فقد تم عزلها عن كل هذه الأمور ما عدا الكرسي الذي تجلس عليه، وكأنّه ليس لديها شيء لتطرق به رأس الطفل!

عندما أخذت تيلي تسرح بنظرها إلى الألعاب والدُّمى في الغرفة، كانت الألعاب والدُّمى تفعل ذلك بالمقابل أيضاً. أما في الجهة المُقابلة للباب، فقد كان هنالك مجموعة من الرّجال المسنّين الذين أظهروا اهتماماً خاصاً بهذه الحفلة الصّغيرة، كانوا يتوقفون بين الفيْنة والفيْنة ويقفزون مثل الأطفال ثم يعاودون الاستماع إلى محادثاتهم

وينغمسون مجدداً بها مراراً وتكراراً، وهكذا فكانوا يعاودون الكرّة دون انقطاع حتى للتنفس، في حالة مرحة وشديدة الانفعال.

دعني أؤكد لك أمراً واحداً، وهو إنْ كان هؤلاء السّادة المسنّون يتمتعون بشيءٍ ما، فَهُم يفرحون فرحة الأشرار بإزعاج تاكلتون، وسيكون لديهم سببٌ جيد للرضى عن أنفسهم. لم يستطع تاكلتون أنْ ينخرط معهم، وكلما زاد انخراط عروسته بمجتمع دوت وحياتها؛ قلَّ إعجابه بهذا الأمر؛ وذلك على الرغم من أنه قد جمعهن لهذا الغرض. إذ إنّ تاكلتون قد كان، بطبعه، شخصاً شكّاكاً، فحين كان يسمعهن يضحكن وهو لا يضحك، فيُهيّأ له فوراً أنّهن يضحكن منه.

قالت دوت: «آه عزيزتي ماي! كم تغير الزمن. حين نتكلم بأيام المدرسة التي ولّت، فهذا يجعلني أشعر بأنني صغيرةٌ مجدداً».

قال تاكلتون: «لماذا تقولين هذا؟ هل أنتِ عجوز؟»

أجابته دوت: «انظرْ إلى زوجي الرزين والهادئ هناك. إنّه يزيد عشرين عاماً على عمري، في أقلّ تقدير الأقل، أليس كذلك يا جون؟»

أجابها جون: «بل أربعين».

قالت دوت لتاكلتون وهي تضحك: «كم يزيد عمرك على عمر ماي. يقيناً أنا لا أعرف. لكني أظنّ أنك تكبرها بمئة عامٍ على الأقلّ، إلى يوم ميلادها القادم».

ضحك تاكلتون ضحكةَ طبلةٍ جوفاء: «ها ها!». بدا كأنّه يريد أنْ يقطع، برفقٍ، عنقَ دوت عن جسدها.

قالت دوت: «يا إلهي! فقط تذكري كيف كنا نتكلم في المدرسة حول الأزواج الذين سنختارهم. أتذكرين كيف كان الذي حلمت به، ليس لديه أي ذرة من جمال، بل ليس محبوباً ولا شاباً، كانت صفاته أشبه برجلٍ عجوز! والشخص الذي كنتِ تتخيلينه كان كذلك أيضاً يا ماي! أوه يا إلهي، لا أدري هل أبكي أو أضحك حين أتذكر كم كنا فتياتٍ سخيفات».

يبدو أنّ ماي كانت تعلم بالتحديد ما الذي عليها أنْ تفعله، إذ بدا التغيّر على مُحيّاها، والدموع كانت تقف عند مُقلتيها.

قالت دوت: «حتى الأشخاص أنفسهم الذين كنا نعرفهم قد تغيروا مع مرور الوقت، ولكنهم في بعض الأوقات قد تمسكوا بشيءٍ ما لهم، لم نكن ندري أنّ الأمور ستؤول إلى هنا. أنا لم أكن أعلم بأنني سأتمسك بجون إلى هذا الحد، لم أتوقع في حياتي أنني سأكون معه. إذا كنتُ قد أخبرتكِ يوماً بأنّكِ ستتزوجين السّيد تاكلتون لكنتِ صفعتِني، أليس كذلك يا ماي؟»

على الرغم من أنّ ماي لم تقل «نعم»، إلا أنّها لم تقل «لا» أيضاً؛ ولم تعبر بأي طريقةٍ أخرى.

ضحك تاكلتون بصوتٍ مرتفع؛ في الواقع هو لم يضحك ضحكةً طبيعية بل كانت أشبه بالضحك والصراخ معاً. جون بيري بينغل ضَحِك أيضاً، ولكنْ ضحكته المُعتادة والهادئة، التي كانت بالنسبة إلى ضحكة تاكلتون كالهمس في قعر بئر عميق.

قال تاكلتون: «لم تستطيعا أنْ تكبحا جماح نفسيكما بعد هذا كله. لم تستطيعا أيضاً أنْ تقاوما سحرنا الخلّاب. نحن هنا! نحن هنا! أين العرسان الشّبان الذين كنتن تتكلمن بشأنهم الآن!».

قالت دوت: «بعضهم قد مات، وبعضهم تم نسيانه. وبعضهم إنْ وقفنا أمامهم في هذه اللحظة فلن يصدقوا أنّنا نفس الكائنات التي كانت معهم في المدرسة. لم يكونوا ليصدقوا أنّ كل ما سمعوه ورأوه كان حقيقة، وأنّ أمر نسيانهم ليس بالأمر الجلل العظيم. لا، على الأغلب لم يكونوا ليصدقوا حرفاً واحداً!».

تساءل الكافل: «لماذا يا دوت؟»

تحدثت دوت بكل حماس ولكن بجدية وصرامة، حتى إنّها اضطرت إلى التوقف حتى تستطيع أنْ تَجمع أفكارها وترتب حروفها. كانت نظرات زوجها لها لطيفةً جداً، حتى إنّه تدخّل في الكلام لكي يحمي العجوز تاكلتون، ولكن فعاليته أتت مُعاكسة للتوقعات. توقفت دوت عن الكلام ولم تنطق بكلمة واحدة بعدها. كان هنالك شحناتٌ غير طبيعية في الجو، إذ إنّها في صمتها حذرت تاكلتون الذي كان ينظر إليها بعينه النصف مفتوحة، وقد لاحظ عليها ذلك.

لم تَنطِق ماي كلمة واحدة، لا جيدةً ولا سيئة. فقط جلست هناك دون حراك، وعيناها مصوبتان نحو الأرض لا تُعيرُ اهتماماً بما يحدث حولها. في هذه اللحظة قاطعت والدتُها الصمتَ المخيف ببعض الكلام المريح، قائلةً إنّ الفتيات يبقين فتيات، وما سَلَفَ فقد عفا الله عنه، وأنّه ما من فتاة أو شاب إلا قد دخل في مرحلة المُراهقة اللامبالية وغير السليمة بشكلٍ ما، وأنّهم يمكن أنْ يَعتبروا أنفسهم قد دخلوا في هذه المرحلة وتجاوزوها، وأنّ هنالك بعض مواضيع لا يُقبل الجدال فيها. ثم قالت كلمات وَرِعة وشكرت رب السّماء كم هي محظوظة لامتلاكها فتاةً مثل ماي التي كانت مُطيعة دائماً. وأما

هي فلم تُنسب الفضل إلى نفسها على الرغم من أنّ لديها أسباباً كافية لتؤمن بأنّ الفضل كله يعود إليها، وأنّها تَدين لنفسها بذلك. أشارت إلى السّيد تاكلتون، وقالت إنّه بنظرها يُعتبر شخصية أخلاقية لا يمكن إنكارها، وأنّه مؤهلٌ أهلية كافية للزواج من ابنتها، ولا يمكن لأحدٍ ما أنْ يشكُّ في هذا الأمر حتى بينه وبينه نفسه. (لقد كانت لافتة للنظر جداً هنا). وفيما يتعلق بالعائلة التي كان قريباً جداً منها، بعد بعض التّماسّ الذي حدث فقالت إنها تَأكدت من أنّ السّيد تاكلتون قد عَلم بالأمر، وأنّه على الرغم من حدوث بعض النقص في ثروته إلا أنّ لديها ذريعة مُقنعة لكل ما يحدث، وأنّه قد كان هنالك ظروف معينة ليس لها أي علاقة بما يحدث. كانت ستنجرف بكلامها إلى حدّ الحديث عن تجارة انديغو، التي ليس لها أي علاقة بها، ولكنها كانت تشير بذلك على وجه التحديد إلى أنّ الأمور كانت ستصبح مختلفةً أكثر لو كان بحوزته تلك الثروة التي سيجنيها من تلك التجارة. ثم قالت إنّها لن تعود إلى ذكر الماضي، وأنّها لن تتحدث عن رفض ابنتها بعض الوقت للسيد تاكلتون، وأنّها لن تقول الكثير من الأشياء التي قالتها بالفعل. وأخيراً، فإنها أنهت حديثها بتجربتها وخبرتها في هذه الحياة، وأنّ الزواج الذي يكون فيه البساطة والحبّ هو الأنجح والأسعد من بين كل الزيجات الأخرى، وأنّها كانت تنتظر أكبر قدرٍ من النعيم والسّعادة، ليست النعمة الهائجة والمبتذلة ولكن النعمة المتينة والراسخة عند اقتراب موعد الزواج؛ واختتمت حديثها بقولها إنّها كانت تعيش وتنتظر الغد بشوقٍ كبير، وحين ينتهي فهي لا تتمنى شيئاً سوى أنْ تحظى بحياة هادئة ودافئة.

على الرغم من أن هذه الملاحظات التي قالتها غير قابلة للمُساءلة إلا أنها كانت سعيدة جداً لكونها أتت في مكانها الصحيح وأدت الغرض من كلامها. بعد ذلك غيروا أوتار الحديث، وصبوا الاهتمام كلّه على سلة التنزه وفطيرة لحم الخنزير، وعلى ساق لحم الضأن البارد، والبطاطا المُدخنة، وكعكة التورتة. وبما أنّ زجاجات الجَعة كانت ستُفتح فقد اقترح جون أنْ يشربوا نخب يوم غد، وهو يوم زواج تاكلتون وماي قبل أنْ يَهِمَّ هو وزوجته بالمغادرة.

عليك أنْ تعلم بأنّ جون كان يأخذ استراحاتٍ بين الحين والآخر ويخرج لإطعام الحصان، ويسير مسافة أربعة أميال إلى خمسة وحين يعود في المساء يأخذ دوت، وفي طريقه إلى المنزل يأخذ استراحةً أخرى. لطالما كانت هذه عاداته في رحلات التنزه.

كان هنالك شخصان آخران يجلسان بالقرب من العروسين باختيارهما؛ كانا يشربان النَّخب دون اكتراث. إحداهما وكانت دوت، التي حاولت أنْ تُبقي نفسها بعيدة عن أي تشويش قد يحدث. والأخرى كانت بيرثا، التي غادرت الطاولة مسرعة قبل الجميع.

قال جون بيري بينغل بقوة وهو يسحب معطفه الثقيل: «إلى اللقاء! سأعود في المساء، إلى اللقاء جميعاً!».

أجابه كاليب: «إلى اللقاء يا جون».

بدا كأنّه يقولها عن ظهر قلب، ويلوح بيده بنفس الطريقة اللاواعية، لأنّه كان يقف ويراقب التعابير المُبهمة على وجه بيرثا التي أقلقته جداً.

قال جون الكافل وهو ينحني ليقبل الطفل الصّغير: «إلى اللقاء أيها الصبي!»، حيث كانت تيلي سلوبوي في هذه اللحظة مُنكبة على السكين والشوكة (غريبٌ قول هذا دون الإحساس بالأذى)، وترقُد نائمة على سريرٍ صغير من أثاث بيرثا. «إلى اللقاء! سيمضي الوقت على ما اعتقد، وسيأتي اليوم الذي ستخرج فيه إلى مواجهة هذا البرد القارس يا صديقي الصّغير، وستترك أباك ليستمتع بغليونه عند زاوية المدخنة، صحيح؟ أين دوت؟»

قالت فوراً: «أنا هنا يا جون».

قال الكافل وهو يُصفق بيديه: «تعالي، تعالي! أين الغليون؟»

«لقد نسيت الغليون تماماً يا جون».

نسيت الغليون؟ يا له من شيءٍ غريب سماعُه! هي! تنسى الغليون! هل نسيته حقاً؟

«سأحضره لك فوراً، سيكون جاهزاً قريباً».

ولكنه لم يكن جاهزاً بسرعة. لقد كان مُلقى في مكانه المُعتاد، في جيب المعطف الثقيل للكافل، مع الصندوق الصّغير؛ وهو مكان عملها للغليون، حيث كانت تملؤهُ منه. ولكن يدها كانت ترتجف بشدة حتى إنّها لم تتمكن من تنظيفه وتعبئته جيداً (إنّ يدها صغيرةٌ جداً ويمكنها أنْ تخرجها من فم الغليون بسهولة على الرغم من ذلك). مَلْءُ الغليون وإشعاله، هذه الأمور الصّغيرة قد تم إنجازها من الألف إلى الياء. وخلال هذه العملية، فكانت عين تاكلتون النصف مفتوحة مُصوبة عليها كلها إليها، وحين تنظر إليها هذه

العين فمن الصعب ألا تنجرف العين الأخرى معها للنظر، ومع ذلك فإنّ هذا يزيد من ارتباك دوت إلى درجةٍ ملحوظة.

قال جون: «ما بكِ هذا المساء يا دوت، تبدين كالخرقاء؟ كان بإمكاني وحدي أن أتقنها بشكلٍ أفضل، أؤكد على هذا».

بهذه الكلمات العفوية التي خرجت من فمه، توجه جون إلى الخارج برفقة بوكسر، وكان يمكن سماع صوت جرجرة العربة على الأرض وهي تمشي نزولاً على الطريق. ولا يزال كاليب إلى هذه اللحظة يقف يتأمل وجه ابنته الكفيفة بنفس تعابير وجهه السابقة.

قال كاليب برفق: «بيرثا، ما الأمر يا عزيزتي؟ ما الذي طرأ عليكِ فجأةً وجعلكِ بصورةٍ مختلفة عن الصباح، تبدين شاحبة وكئيبة بعض الشيء! ما الأمر، أخبريني؟»

قالت الفتاة الكفيفة وهي تبكي بحرقةٍ شديدة: «أوه يا أبي، يا أبي! أوه مصيري، مصيري المشؤوم».

وقبل أنْ يجيبها، مرّر كاليب يديه على عينيه.

«ولكن يا بيرثا، فكري كم كنتِ سعيدة ومبتهجة! كم كنتِ رائعة ومحبوبة لدى العديد من الأشخاص!».

«إنّ هذا كالصاعقة على قلبي يا أبي العزيز! أنت دائماً لطيفٌ معي!».

كان كاليب في أشد الحيرة فيما تقوله ابنته.

«أنّ... أنْ تكوني كفيفة... يا فتاتي الصّغيرة» ثم تعثر في كلامه، «لأنّها مُصيبة عظيمة، ولكن...»

قالت الفتاة الكفيفة بغصّة: «لم أشعر بهذا الأمر يوماً! لم أشعر به قَطّ، لم أشعر ببركة هذا الأمر، قطّ يا أبي! أتمنى أحياناً لو أمكنني رؤيتك، ورؤية تفاصيل وجهك الجميلة، أو إنّ أمكنني رؤيته، مرةٍ واحدةٍ فحسب يا أبي، دقيقة فقط لا أكثر، حتى يمكنني أنْ أدرك ما هو الكنز الحقيقي، وأبقيه هنا»، وهنا أشارت بيدها إلى قلبها، «وأبقيه هنا! لربما أكون على يقينٍ أنّ هذا صحيح! ولكنْ أحياناً (ولكن هذا كان عندما كنتُ صغيرة) كنتُ أبكي حدّ الألم وأنا أدعو في الليل، حين أفكر بأنّ صورتك قد ارتفعت من قلبي إلى السّماء، قد لا تكون هذه صوركم الحقيقية. لم أشعر بهذه المشاعر منذ فترةٍ طويلة، لقد وافتهم المنايا وتركوني هادئة وقانعة بها لديّ».

قال كاليب: «وسيفعلون ذلك مجدداً».

قالت الفتاة الكفيفة: «ولكن يا أبي! أوه يا والدي العزيز والجميل، أرجوك؛ تعاون معي قليلاً، اشعُرْ بما أشعرُ به، لو كنتُ ملعونة! فلن يكون هذا هو الحزن الذي يُثقل قلبي».

لم يكن بيد والدها أنْ يفعل شيئاً سوى إسكات عينيه الغارقتين في الدموع، إذ كانت ابنته مسكينة ومثيرة للشفقة، ولم يفهم ما الذي تريده منه بعد.

قالت بيرثا: «أحضرها إليّ، لا أستطيع أنْ أغلقها على نفسي وأكبتها. أحضرها إليّ يا أبي!».

علمت بأنّه تردد فقالت: «ماي، أحضر لي ماي!».

سمعت ماي ذكر اسمها فذهبت إليها مُسرعة، ووضعت يدها على يد الفتاة. التقتها الفتاة الكفيفة مُباشرةً وتشبثت بها بكلتا ذراعيها.

قالت بيرثا: «انظري إلى وجهي يا عزيزتي، اقرئيه بعينيك الجميلتين، وأخبريني إنْ كانت الحقيقة مكتوبة عليها أم لا».

«عزيزتي بيرثا، أجل!»

الفتاة الكفيفة؛ لا يزالُ وجهها حزيناً، ودموعها تغسل خدّيها وهي ترافقها هذه الكلمات:

«ليس هنالك في قلبي أو في روحي مِثقال ذرةٍ من شرٍ لكِ عزيزتي ماي! أُمنيتي لكِ هي أنْ تَبقي بخير. وليس هنالك في قلبي ذكرياتٌ تعترف بالجميل الذي صنعتهِ لي أقوى من ذكرياتي حين كنتِ تتفاخرين بجمال بيرثا الكفيفة، وهذا يُعيد إليّ الذكريات مراراً وتكراراً. حتى عندما كنا أطفالاً، أو حين كانت بيرثا هي الطفل الكفيف الوحيد من بين الجميع! كل نِعمةٍ في رأسكِ يا ماي، تُنير لكِ دربكِ السعيد! ولا أتمنى لكِ أقل من هذا يا عزيزتي ماي!»، ثم اقتربت منها أكثر وأحكمت قبضة يدها، «لا أتمنى لكِ أقلّ من هذا يا عصفورتي الجميلة. وسأقول لكِ الحقيقة؛ خبر اليوم الذي أتاني بأنّكِ ستتزوجين السيد تاكلتون، انتزع قلبي من جذوره! أبي، يا ماي، يا ماري! اغفروا لي زلّتي لأنّ الأمر آلَ إلى هذا الحد. لقد فعل الكثير والكثير للتخفيف من ضجر حياتي المُظلمة، لقد آمن بي حين لم يؤمن أحدٌ بي، وحين أدعو ربّ السّماء فلا أتمنى له سوى زوجةٍ تكون جديرةً به!».

قال والدها بغضبٍ وحزنٍ شديدين: «يا لها من فتاةٍ قوية! لقد كنتُ أحاول أنْ أوهِمَها بالسعادة منذ ولادتها، ولكن قلبها كُسر في النهاية!».



من بين كل الأمور التي حدثت، لقد كان من الجيد لهم أنَّ دوت كانت معهم، تلك الشابة الذكية الواعية، لقد واجهت موقفهم هذا بكل عقلانية وحكمة، وقبل أنْ يتكلم كاليب مع ابنته، وقبل أنْ تقول ماي أيّ شيءٍ آخر، فقد قالت هذه المرأة الشابة المُبتهجة وهي تقبلها على جبينها:

«تعالي يا عزيزتي بيرثا، تعالي! تعالي معي! مُدي لها يدك يا ماي، أترون كم هي فتاةٌ جميلة وحساسة! تعالي يا عزيزتي بيرثا إلى هنا، وها هو والدكِ سيأتي إليكِ أيضاً. ألن تفعل يا كاليب؟»

حسناً، حسناً! لقد كانت فتاةً شابة نبيلة فيما يتعلق بهذه الأمور، ومن لا يَصمُد أمام نفوذها كان عليه أنْ يكون خارقاً للطبيعة. عندما جعلت كاليب المسكين وبيرثا يجلسان معاً بعيداً عنهم، حتى يستطيعا أنْ يشعرا بالرّاحة وتقول له بيرثا كل ما يجول بخاطرها، وكانت تعلم أنّهما سيتفاهمان جداً؛ وعندما جلست مع الوالدة المُسنة لإبقائها بعيدة عن التدخل غير المرغوبِ فيه. وحين وضعت كرسيها بقرب النار قالت: «تيلي، أحضري لي طفلي الغالي. وعندما أضعه في حِجري أريد من السّيدة فيلدينغ أنْ تخبرني بكل ما تعرفه عن تربية الأطفال، وأن تضعني على الطريق الصحيحة حتى أكون بعيدة قدر الإمكان عن الخطأ. أليس كذلك يا سيدة فيلدينغ؟»

حتى العملاق الويلزي، الذي وصفه الأدب الشعبي بالبليد، والذي نجا من خدعة، بل من فخّ نصبه له عدوّ لدود – حتى هذا العملاق لم يكن أقدر من السيدة العجوز، التي نجت أيضاً من شَرَك بارع. لقد غادر تاكلتون المكان، وكان على مقربة منها شخصان يتحدثان دون أن يُشركاها في الحديث معهما، واحتراماً منها لخبراتها، ولكونها أمّاً مسنّة، فإنها لم تمانع، بل استجابت فوراً، وبدأت بتنوير هذا العالم بخبراتها السابقة فيما يخص الأطفال.

قامت دوت بالعمل في الحياكة لتغيير الموضوع، إنّها دائماً ما تُحضر معها صندوقاً يحتوي على أدوات العمل كلها تحمله في جيبها. على الرغم من أنّها قد فكرت في الموضوع قليلاً، ولكنها شَغلت نفسها. قامت ببعض أعمال التمريض للطفل. هي تُحيك قليلاً ثم تقوم بمحادثةٍ صغيرة مع ماي، حيث كانت العجوز المُسنّة تغفو على

مقعدها. وهكذا في صَخَب الأعمال هذه كلها -وفي الحقيقة كان لدوت طريقتها الخاصة في إمضاء الوقت- وجدت أنّ الشمس قد سارعت إلى الغروب، والظلامُ حلّ سريعاً. في كل مرةٍ يخرجون في هذه النزهة الصّغيرة تقوم دوت بقليلٍ من الأعمال المنزلية لبيرثا: خففت شعلة النيران، ونظفت الموقد، ورتبت طاولة الشاي، وعدلت الستائر، وأضاءت الشموع، ثم قامت بالعزف بعض الوقت على قيثارة قديمة كان كاليب قد أحضرها لبيرثا، وهذا العزف كانت تجيده بشكلٍ جيدٍ جداً. بطبيعة الحال، ولكون بيرثا كفيفة فإنّ أذُنها الصّغيرة الرقيقة كانت كالوتر يرنّ مع كل نوتة موسيقية. ومن جمالها كانت تليق بها عليها الجواهر، لو كان لديها أيٌّ منها. بحلول هذا الوقت، كانت الساعة تدق لإعلان موعد شُرب الشاي، وعاد تاكلتون مجدداً للمُشاركة في الوليمة وقضاء المساء.

عاد كاليب وبيرثا بعد الجلوس بعض الوقت منفردين، وانكبّ على عمله الذي يخصصه لفترة ما بعد المساء. ولكنه لم يستطع أنْ يَجمع قواه؛ صديقنا المسكين هذا قلبه يحترق على ابنته. إنّ ما يؤلم القلب بشدة رؤية كاليب وهو جالسٌ في تلك الزاوية على كرسيّ عمله، والندم يتغلغل في قلبه والحزن الشديد يفيض على وجهه! تسمعه يردد مراراً وتكراراً، «لقد خدعتُها منذ صِغرها، لقد كسرتُ قلبها!».

عندما أتى الليل، وانتهى وقت الشاي؛ لم يكن هنالك من شيء تفعله دوت سوى أنْ تغسل آخر ما تبقى من الكؤوس والصحون. عليّ أنْ أعترف بشيءٍ ما – لربما يكون ذا فائدة أو بلا

فائدة، ولكن حين كان من المتوقع عودة جون الكافل وحين تسمع صوت عجلات عربة تسير في الطريق، تتغير طريقة دوت كاملة، ويبدأ وجهها بالتلوّن وتصبح قلقةً جداً. لم تكن كباقي الزوجات حين يقلقن من شيء حيال أزواجهن، لا لا لا، بل كان قلقاً من نوعٍ آخر. سُمعت أصوات عجلات، وأقدام حصان، ونباح كلب، والظهور التدريجي لكل الأصوات، حتى وصل إلى صوت خدش بوكسر لباب المنزل!

قالت بيرثا: «أصوات خطوات مَنْ هذه؟»

أجابها الكافل وهو يقف عند الباب بوجهه المُزرقّ من هواء الليل البارد: «خطواتي أنا، لمن ستكون إن لم تكن خطواتي؟»

قالت بيرثا: «لا، خلفك، هناك رجلٌ آخر».

قال الكافل وهو يضحك: «لا يمكن خداع هذه الفتاة بسهولة».

«تعال يا سيدي، لا تخف. أنت مرحبٌ بك هنا دون شك!». تحدَّث بنبرة قوية وعالية، وهو يتحدث دخل الرّجل الأصمّ العجوز.

قال الكافل: «لقد التقيته من قبل يا كاليب، لذا فلن يكون هذا الشخص غريباً بالنسبة إليك. أيمكنك أنْ تعطيه غرفةً حتى نغادر؟»

«أوه بالتأكيد يا جون. هذا شرفٌ لي».

قال جون: «إنّه أفضل رفيق يمكن أنْ تحصل عليه يوماً للتحدث بالأسرار معه. لديّ رئتان جيدتان للتكلم، وهو لديه أيضاً

ويحاول بكل جهده الكلام. اجلس هنا يا سيدي، جميعنا هنا أصدقاء والكل مسرورٌ برؤيتك».

أراد أنْ يؤكد بشكلٍ قاطع ما قاله عن رئتيه، فأضاف بلهجته الطبيعية، «كرسيٌّ في زاوية المدخنة، ويُترَكُ هناك صامتاً ولكن سعيد، إنه بسيطٌ جداً».

كانت بيرثا تستمع باهتمامٍ شديد. نادت كاليب ليجلس بجانبها، وعندما جلس طلبت منه بصوتٍ منخفض أنْ يصفَ لها الزائر. وعندما فعل هذا (وَصَفَهُ هذه المرة بدقة، لم يخدعها بل كان صادقاً جداً)، تحركت من مكانها أول مرة منذ أنْ أتى، تنهدت ولم تبدِ أي اهتمام آخر حوله.

كان الكافل في أبهج أوقاته، سعيداً جداً بحضور صديقه، ومولعاً أكثر بزوجته الشابة.

قال وهو يضمّها بذراعيه الخشنتين بينما ابتعدت عن البقية: «لم تكن دوت على طبيعتها بعد ظهر اليوم! ومع ذلك لا أزال أحبها بطريقةٍ ما. أرأيت يا دوت!».

أشار إلى الرّجل العجوز بينما أنزلت عينيها إلى الأرض، أعتقد أنّها ارتعشت.

قال الكافل: «إنّه – ها ها ها! إنّه معجبٌ بكِ كثيراً! لم يتحدث عن شيءٍ آخر غيركِ طوالَ الطريق إلى هنا. إنّه رجلٌ عجوز ولكنّه شابٌ وشجاع، لقد أُعجبتُ به حقاً!».

قالت وهي تنظر في أرجاء الغرفة بنظرةٍ غير مريحة، خصوصاً إلى تاكلتون: «أتمنى لو لديك موضوع أهم لتتحدث بشأنه يا جون».

هتف جون بمرح: «موضوع أهمّ! ليس هنالك من موضوع أهم، بعيداً عن المعطف الكبير، بعيداً عن الشال السميك، بعيداً عن الثوب الثقيل، ونصف ساعة قُبالة النيران! خدماتي المتواضعة لكِ، حبيبتي. لعبة كريبج، أنا وأنتِ؟ هذا يدفئ القلب. أوراق اللعب والطاولة يا دوت، وكأسٌ من الجَعة هنا؛ إنْ بقي بعضٌ منها طبعاً، وزوجتي الشابة بجانبي!».

تحدّيه كان موجهاً للسيدة العجوز التي قبلته باستعدادٍ كامل، وسرعان ما كانوا منخرطين في اللعبة. في البداية، كان الكافل ينظر إلى الرجل العجوز بين الحين والآخر مع ابتسامة، وينادي دوت لتقف خلف أكتافه وتنظر إلى ما بين يديه، وتنصحه في بعض النقاط الصعبة أو المعقدة. ولكن لكون خصمه صارماً ويحب النّظام، فقد خضع جون لقواعد اللعبة التي تركه الاستغراق فيها دون أعين أو آذان احتياطية، فلم يتابع دوت من بعدُ متابعة كافية. وهكذا، أصبح تركيزه كلّه مصوب إلى الأوراق ولم يُفكر في أي شيءٍ آخر، لقد كان أشبه بالفاقد للوعي الذي عاد إليه عندما أحسّ بيد تاكلتون على كتفه.

«اعتذر لمقاطعتك، ولكنني أحتاج إلى التحدث معك بكلمة الآن!»

أجابه الكافل: «أنا في خِضَمّ صفقة كبيرة الآن، إنّها أزمة».

قال تاكلتون: «أعلم أنّها كذلك. هيّا يا رجل».

ما جعل جون يقف هو رؤية وجه تاكلتون الشاحب والباهت، وقف فوراً وذهب معه وسأله عن الأمر على عجلة.

قال تاكلتون: «هش! جون بيري بينغل، أنا آسف على هذا حقاً. لقد كنتُ خائفاً من هذا الأمر، وكنتُ أشك في هذا منذ البداية».

سأله الكافل بنبرة خوف: «ما هو هذا الأمر؟»

«هش! سأريك إنْ أتيت معي».

تعاون الكافل معه ورافقه دون أي كلمة. عبروا الفناء، وكانت النجوم في تلك الليلة تسطع جداً. تقدموا نحو بابٍ جانبيّ بالقرب من منزل تاكلتون الخاص، حيث كانت هنالك نافذة زجاجية تُطلّ على غرفة تخزين؛ والتي كانت مغلقة تلك الليلة. لم تكن هنالك إضاءة حول منزل تاكلتون ولكن كان هنالك بعض الإنارة بجانب غرفة التخزين مما جعل الغرفة مُضاءة من الداخل والنافذة أكثر وضوحاً.

قال تاكلتون: «لحظة! هل تعتقد أنّ بوسعك احتمال النّظر من النافذة؟»

ردّ عليه الناقل: «ولِمَ لا؟»

قال تاكلتون: «لحظة أخرى! لا تفتعل أي عنف، لأنّه لا فائدة من ذلك. هذا خطيرٌ جداً وأنت رجلٌ قوي، قد ترتكبُ جريمة قتل قبل أنْ تدرك نفسك».

نظر الكافل إليه في الوجه وعاد خطوةً إلى الوراء وكأنّه أحس بأنّه تم خِداعه، ثم بخطوةٍ واحدة إلى الأمام وجد نفسه مُقابل النافذة، وهناك رأى...

ظِلٌّ على الموقد! صرصارٌ مُخلص! وزوجة خائنة!

رآها هناك! مع ذلك الرّجل العجوز، الذي لم يَعُد عجوزاً بعد الآن، بل كان مُنتصباً وأنيقاً - يحمل في يده الشعر الطويل الأبيض الذي كان يرتديه طوال الطريق، والذي تم خداعُه به كي يدخل إلى منزلهم البائس. رآها تستمع إليه، بينما كان يَحني رأسه ويهمس في أذنها، ثمّ يُعانقها ويضع يديه على خَصرها، وهما يتحركان ببطءٍ نحو الباب الخشبي الذي دخلا منه. ثم رآهما يتوقفان، تُدير وجهها ناحيته - ذلك الوجه الذي أحبه دائماً، يقف الآن أمامه ولكن لا ينظر إليه! رآها! ورأى يديها وهما على رأسه وتضحك من قلبها، تضحك وهي غير مبالية!

رفع جون قبضة يده اليمنى القوية التي بإمكانها في ذلك الوقت بالتحديد أنْ تُطيح بأسد ضخم. ولكنّه أرخاها مجدداً قبل أنْ يلحظ تاكلتون ذلك، (إذ إنّه كان لا يزال يحبها، حتى في ذلك الحين). وهكذا، حين غادروا، سقط جون على قطعة من الخشب وبدا ضعيفاً كما ولدته أمه.

كان ملفوفاً بلباسه حتى الذقن، ومشغولاً بحصانه وطروده حين دخلت الغرفة لتستعد للرحيل.

«سنغادر الآن يا عزيزي جون! عِمتِ مساءً ماي، عِمتِ مساءً بيرثا!»

هل استطاعت أنْ تُقَبّلهم جميعاً؟ هل كانت مُبتذلة وسعيدة وطبيعية في توديعهم؟ هل أمكنها أنْ تكشف عن وجهها دون خجل أو استحياء؟ أجل. كان تاكلتون يُراقبها بصمت، وقد فعلت كل هذا.

في تلك الأثناء كانت تيلي تحاول تهدئة الطفل، وتمشي مُقابل تاكلتون ذهاباً وإياباً وهي تردد:

«هل عَلِمَت بأنّها كانت زوجة، تلك التي ضربت قلبه حتى انكسر. وهل ضُلِّل أبوهُ في المهد حتى وصل إلى حُرقة القلب وانكساره!».

«أعطني الطفل الآن يا تيلي، يا إلهي! عمتَ مساءً سيد تاكلتون. أين جون بحق السماء؟»

قال تاكلتون الذي ساعدها لتصل إلى مقعدها: «لقد ذهب ليتمشّى، هو بجانب رأس الحصان».

«عزيزي جون! يتمشّى، في هذه الليلة؟»

الهيئة التي كانت تعلو وجه زوجها في ذلك الوقت جعلتها تفكر بطريقة سلبية، على نحو لا أدري كيف ذلك. جلس الغريب المُزيف والممرضة الصّغيرة في مقاعدهما، وانطلق الحصان العجوز. بوكسر المسكين، يركض خلف العربة، يركض على جوانبها، يدور حولها ويدور، ينبح وكأنّه انتصر في معركةٍ ما.

عندما غادر تاكلتون أيضاً وأخذ زوجته ووالدتها ليوصلهما إلى المنزل، جلس كاليب بجوار النار مع ابنته، والقلق والندم يتغلغلان في قلبه، ولا يزال يردد كلماته، «لقد خدعتُها منذ صِغرها، لقد كسرتُ قلبها!»

الألعاب التي تم صُنعها للطفل قد تم إيقافها، وهُدمت منذ فترةٍ طويلة. في الضوء الخافت والصمت، والدمى الهادئة بشكلٍ لا يُطاق؛ والخيول الهزازة ذات العيون المُتفخة والأنوف الكبيرة؛ والرّجل العجوز يقف أمام الباب بضعفٍ ووَهَن على قدميه الهزيلتين؛ وكسارات البندق ذوات الوجه الظريف؛ والحيوانات التي تصعد سفينة نوح تمشي أزواجاً، مثل مدرسةٍ داخلية مُنتظمة، قد تراها لا تتحرك ودون مشاعر ولكنها قد تُضفي على قلبك سحر الأعجوبة في صنع الألعاب، كما «دوت» كِذبة، ودون تاكلتون أو محبوبته، تحت أي مجموعةٍ من الظروف؛ هكذا هي.


التغريدة الثالثة
مكتبة
t.me/t_pdf

كانت السّاعة تدق العاشرة حين جلس الكافل بجوار النار، مُضطرباً ومرهَقاً جداً، وبدا كأنّه سيُخيف الوقواق؛ بعد أنْ قطع صفيره عشر دقاتٍ بأسرع وقتٍ ممكن. دخل إلى قصره البربري وأغلق الباب خلفه واختبأ في الداخل؛ كما لو أنّ المشهد الذي رآهُ كان يفوق تحمله كثيراً. لو أنّ صانع التبن يحمل في يده السّلاح الأكثر خطورةً وَحِدَّة، وبدأ يطعن جون الكافل كلما تجرأ على إيقاف صفير الوقواق كلما خرج، لما كان قد تسبب في جَرحه وزرع الألم في قلبه، كما فعلت دوت.

لقد كان قلبه ينبض شَغفاً بها، مُرتبطاً بها جداً بل كان قلباهما معقوداً أحدهما على الآخر (على الأقل بالنسبة إلى جون)، فهو يحمل في قلبه ذكرياتٍ يُفترض أنْ تكون انتصاراتٍ له. نَسج لها يومياً خيوطاً من الحُبّ في قلبه، لقد كان القلب الذي وَثَّقت نَفسَها به وبَنَت لها بيتاً فيه، هو قلبٌ واحد مُثابر وصادق، قويٌّ جداً عند الحق، وضعيفٌ جداً عند الخطأ، هو القلب الذي لم يكن بإمكانه أنْ يَرعى بين ضلوعه الانتقام في البداية، والذي أصبح الآن غُرفةً مُحطمة تحمل الصورة لتلك الزوجة المثالية في نظره.

ولكن ببطء، ببطء بينما جلس الكافل قرب موقده وهو كئيبٌ ويُفكر بعمقٍ شديد، والبرودة والظلام من حوله يزدادان - بدأت تنمو في ذهنه أفكارٌ أكثر عُنفاً، كما تأتي الرّياح العنيفة وتزداد في الليل شراسةً وعنفاً، وتَضربُ دون رحمة. كان الغريب تحت سقفه الغاضب: ثلاثُ خطواتٍ فقط ستقوده إلى غرفته، ضربة واحدة من شأنها أنْ تقضي عليه كلياً؛ «قد تكون قاتلاً قبل أنْ تدرك نفسك»،

كلمات تاكلتون له تتردد في ذهنه. كيف ستكون جريمة قتلٍ إنْ سَمَحَ للوغد بأنْ يُقاتله يداً بيد، وهو الأصغر عُمراً أيضاً!

لقد كان تفكيراً غير سليم، مسيئاً لظلمة عقله الآن. لقد كان تفكيراً بدافع الغضب سيقوده لأخذ الثأر منه؛ مما سيحوّل هذا المنزل البَهيج إلى محطة تَسكنها الأشباح، لا يَرتاده إلا الرّحّالون خلال مسيرتهم العابرة، أولئك الذين لا يَخشون أنْ يروا ظلالاً تتأوه خلف النوافذ المُحطمة حين يكون القمر مُعتماً، ولا يُرعبهم أنْ يسمعوا صُراخاً في الليالي العاصفة والمقيتة.

لقد كان الأصغر عُمراً! أجل، أجل، لربما هو أحد الأحباب الذين فازوا بهذا القلب الذي لم يستطع يوماً أنْ يَصله، لربما هو أحدُ الأحباب من اختياراتها السابقة، وهم الذين كانت تُفكر فيهم وتحلم أنْ تكون معهم، أو الذين اشتاقت إليهم وتعلقت بهم، في الوقت الذي كان فيه جون يظن أنّها سعيدة وهي بجانبه. مؤلمٌ حدَّ العذابِ التفكيرُ في هذا!

كانت دوت أعلى السلالم مع الطفل تُمهّدُ له السرير. عندما كان جون جالساً ويتعذب بقرب الموقد. أتت بقربه دون أنْ يشعر. في التحول الهائل لبؤسه الشديد، فإنه القدرة على إدراك ما حوله، لم يَعُد يسمع أي شيءٍ يحدث حوله. وضعَ كرسيّها الصّغير تحت قدمه. لم يدرك نفسه إلا وهي تضع يدها على يده وتنظر إلى وجهه.

كان من الصعب عليه أنْ ينظر إليها مجدداً. نظر إليها نظرةَ حرصٍ واستفسار ولكن ليس نظرة تعجب. في البداية كان الأمر مزعجاً وخطيراً، ثم تحول إلى ابتسامة غريبة، وحشية، ومرعبة

تعكس ما يدور في ذهنه. ثم لم يكن هناك سوى يديها الموضوعتين على جبينها، ورأسها المُنحني، وشعرها المُنسدل.

على الرغم من وجود القوة الكافية والكلية في تلك اللحظة لمعاقبتها، إلا أنّه كان يملك في صدره حُبّاً ورحمة لها لا يوصفان. لكنه لم يحتمل أنْ ينظر إليها وهي تجلس على كرسيها الصغير حيث اعتاد النّظر إليها دائماً بحب وفخر، وبطهارةٍ وبراءة. وعندما نهضت وتركته، وذهبت وهي تتنهد، فقد شعر بالراحة لرؤية المكان شاغراً بدلاً من حضورها الذي يُثقِل قلبه. هذا بحدّ ذاته كان عذاباً شديداً أكثر من أي شيءٍ آخر، الآن يشعر أنّ فؤاده أصبح فارغاً، وأنّ روابط حياته العظيمة ليست إلا مجرد أحداثٍ سخيفة؛ الأمر الذي كَسر قلبه.

كلما شعر بذلك، أيقن أنّ ما سيروي قلبه هو رؤيتها مُلقاةً على الأرض جثةً هامدة وعلى صدرها طفلها، بل أخذ يزداد غضباً وكرهاً لعدوّه ونظر إليه على أنّه سلاح يُمكن استخدامه.

على الحائط، كان هنالك بندقيةٌ مُعلّقة أخذها وأدارها وتحرك ببطء نحو باب غرفة الغريب. كان يعلم بأنّ البندقية محشوة. بعض الأفكار المُظلمة كانت أنْ يُطلق النار على الرّجل الغريب بوحشية والتخلص منه؛ نمت الفكرة برأسه واستولت عليه، توسعت في ذهنه حتى أصبح كالشيطان يوسوس لنفسه أنْ يقتله كالوحش البريّ، وألا يسمح له بأنْ يدخل مملكته ويَهدمها ويخرج سالماً بلا عقاب. لم يكن ليسمح بأنْ تتحطّم إمبراطوريته بسبب رجلٍ غريب.

هذه العبارة خاطئة، إنّه لا يُخرج أفكاره الأكثر اعتدالاً بل هو يَتفنن بالتفكير في كيفية تعذيبه. تغيير أفكاره سوف تدفعه لفعل ما يريده ويَشفي غَليله؛ تحويل الماء إلى دماء، والحب إلى كراهية، واللطف إلى الضراوة العمياء. صورتها في عقله، والأسى، والذّل؛ لكنها لا تزال تتوسل إلى حبّه ورحمته بطريقة لا تقاوم، لا تُغادر ذهنه أبداً. ولكن ببقائها هناك أدى به المطاف إلى الوقوف خارج غرفة الغريب، يُسند البندقية إلى كتفه، ويضع إصبعه على الزِّناد، ويصيح في نفسه، «اقتله! في سريره!».

عَكَسَ البندقية ليواجه الباب، رفعها في الهواء بالفعل؛ إنّه يوشك أن يفعلها. بعض الأفكار في عقله توسوس له أنْ يناديه باسمه ويخرجه من الغرفة ثم يقتله، وحباً بالله يُلقيه من النافذة!

فجأةً عندما ازدادت نيران المدفأة وبدأت تعكس نيرانها عليه، وبدأ الصرصار على الموقد بالصفير!

لم يستطع أنْ يسمع همسةً واحدة، لا صوتَ لبشري ولا لصوتها، الذي كان بإمكانه أنْ يُخفف عنه. الكلمات التي لا معنى لها، والتي أخبرته بها عن حبها لصوت هذا الصرصار، كانت في يومٍ من الأيام تُنعش القلب. كان ارتجافها يقف حالياً أمامه، مرةً أخرى. صوتها اللطيف - أوه، يا له من صوت، يَصنع موسيقى خاصة بجانب الموقد حيث يجلس الرّجل الصادق والمُحبّ! كان يَشقُّ طريقه بطريقةٍ خلابة إلى قلبه فيعيد إليه الحياة.

ابتعد عن الباب، وبدا كرجلٍ كان نائماً، ثمّ استيقظ مفزوعاً من كابوسٍ فظيع، ثم وضع البندقية جانباً. جلس أمام المدفأة ووضع يديه على وجهه وأجهش بالبكاء.



صرصار الليل على الموقد خرج إلى الغرفة، وتشكل على هيئة شخصية خيالية أمامه.

قال الصوت الخيالي، يُردد ما يُمكّن الكافل من تذكره: «أحبُّه، لكل الأيام التي سَمعتُ لحنه فيها، ولكل المشاعر التي زرعها في قلبي بموسيقاه الرائعة».

قال الكافل بغصة: «هذا ما قالته! بصدق!».

«لقد كان هذا دوماً منزلاً مليئاً بالبهجة يا جون، وأحِبَّه لما هو عليه».

أجابه الكافل: «لقد كان جنة. لطالما جعلته منزلاً سعيداً - حتى الآن!».

قال الصوت: «رشيقة وجميلة، حيوية جداً، مُبهجة، نشيطة وطيبة القلب».

أجابه الكافل: «وإلا لم أكن لأحبها كما فعلت».

قال الصوت مُصحّحاً كلمته: «كما تفعل».

أعاد الكافل القول: «كما فعلت!»، ولكن ليس بجزم. كان لسانه يقاوم سيطرته عليه، ويتكلم بطريقته الخاصة لنفسه وله.

الصوت الخيالي، بهيئته وقف مُبتهلاً ووضع يده عليه وقال:

«على الموقد الخاص بك...»

قاطعه الكافل قائلاً: «الموقد الذي سَئِمَت منه».

قال الصرصار: «الموقد - الذي لطالما أحبته وباركته. الموقد الذي كان لغيرها مجرد مجموعةٍ من الطوب والإسمنت، كان بالنسبة إليها مكاناً مُقدساً لمنزلك، المكان الذي ضَحيتَ فيه ليالي كثيرة من العاطفة الزائفة، والأنانية، أو الاهتمام، واستعدت هنا عقلك الهادئ، وثقتك بنفسك، وقلبك الفائض بالحب. حتى إنّ الدخان المنبعث من هذه المدخنة الفقيرة صعد بعطرٍ أفضل من أغنى العطور، وأحسن من أنواع البَخور الذي يتم حرقه عند أغنى الأضرحة في المعابد المُترفة في هذا العالم! على الموقد الخاص بك؛ الملجأ الوحيد الهادئ، المُحاط بالأرواح الطيبة. استمع إليها! استمع إليّ! استمع إلى كل من يتحدث بلغة الموقد والمنزل!».

تساءل الكافل: «وأتضرع لها؟»

أجابه الصرصار: «كل من يتحدث بلغة الموقد والمنزل يجب أنْ يتضرع لهذه الأرواح الطيبة! لأنّها تقول الحقيقة».

وعندما استمر الكافل جالساً أمام المدفأة، ويداه على رأسه وغارقاً بالتفكير، وقف الخيال بجانبه؛ يشير بانعكاساته من خلال قوته، ويعرضها أمامه كما في الزجاج أو الصور. لم يكن خيالاً مُنفرداً، بل كان ينعكس من حجر الموقد، ومن المدخنة، ومن الساعة، ومن الغليون، والغلاية، حتى من مهد الطفل، والأرض، والجدران، والسقف، والدرج، ومن خارج العربة، ومن داخل الخزانة، ومن الأدوات المنزلية، ومن كل شيء ومن كل مكان يمكن أنْ يكون مألوفاً، وفي أي شيءٍ يُمكن أنْ يُذكّر زوجها غير السعيد بها. وجاءت الجِنيّات تحتشد بأفواجٍ حوله. ولم يقفن أمامه أو بجانبه كما فعل الصرصار، بل كنّ محتشداتٍ حوله، وفي كل مكان. كنّ يبذلن ما بوسعهنّ لتكريم صورتها، ويَسْحَبْنه من طرف ملابسه ويشرن إلى خيالها حين يظهر؛ يتجمّعن حوله، يحتضنّه، وينثرن الورود أسفله ليدوس عليها؛ ليتَوِّجنَ رأسه بأيديهنّ الصّغيرة، ليخبرنه بأنّهم مولعات به حُبّاً، وأنّه لم يكن هنالك شيءٌ قبيح، أو شرير أو سيّئ، أو مخلوق يُتَّهم بغير عمد - لا شيء سوى أرواحهنّ المرحة، وليثبتوا ما يُرِدْنَ إثباته.

كانت أفكاره مرتكزةً على صورتها، كانت هنا دائماً.

تجلس دوماً تَحيك قُبالة المدفأة، وتغني لنفسها. يا لها من دوت مرحة، ومزدهرة، ومشغولة! تجمعت الشخصيات الخيالية حوله في آنٍ واحد، بموافقةٍ واحدة، وهتافٍ واحد، وكأنّهم يريدون القول، «هل هذه هي الزوجة المُنيرة التي تَنعيها!».

كان هنالك أصوات ابتهاجٍ في الخارج، وأدواتٌ موسيقية، وألسنٌ مزعجة، وضحكات. جاء حشدٌ من صانعي المرح الصّغار يتدفقون، من بينهم كانت ماي فيلدينغ وبعض الفتيات الجميلات الأخريات. دوت كانت الأجمل من بينهن جميعاً، وكذلك الأصغر عمراً. جاؤوا يستدعونها لحضور الحفلة التي يقيمونها. كانوا يعدّون لحفلة راقصة، إنْ كان هنالك من أرجلٍ ترقص فكلها هنا بلا شك. ولكنها ضحكت، وهزّت رأسها وهي تشير إلى كعكها في الفرن وإلى الطاولة التي جهزتها، بطريقة مُريبة جعلتها أكثر سِحراً وجاذبيةً مما كانت عليه. وهكذا ابتعدت عنهم بسرور، وبإيماءة إلى شركائها المحتملين، واحداً تلو الآخر كلما مروا، ولكن بطريقةٍ كوميدية ساخرة. ومع ذلك، فلم تكن السخرية جزءاً من شخصيتها. أوه لا! في الوقت الحاضر لقد جاء الكافل إلى الباب وبارك لها، ويا له من ترحيبٍ قد حظي به! ولكن هذه ليست شخصيتها!

ومجدداً، تجمعت الشخصيات الخيالية حوله وكأنّها تقول: «هل هذه هي الزوجة المُنيرة التي تَنعيها!».

انعكس ظلٌّ على الصورة أو المرآة، سَمِّها ما شئت. ظلٌّ مخيف للغريب، كما وقف أول مرةٍ تحت سقف بيتهم ويغطي سطحه؛ ويطرد كل المخلوقات الأخرى، ولكن الجنيات بذلنَ جهدهنّ وتجمعّن كالنحل ليطردنه من هناك، ومن جديد عادت دوت الجميلة والبَهية. تَهزّ طفلها الصّغير في مهده وتغني له أغنيته بهدوء، وتضع رأسها على ظِلّها حيث كان الصرصار يقف. إنّ الليل – أقصد الليل الحقيقي، وليس الذي تَصنعه الجنيات، يَبرزُ الآن، والقمر يسطع في أبهى أوقاته ويشرق السماءَ المظلمة، حلّ الهدوء

وسَكنَ الجميع، وعَقْلُ الكافل الآن وقد هدأ أيضاً؛ يستطيع الآن أنْ يفكر جيداً، بل بكل وضوح فيما حصل.

على الرغم من أنّ ظلّ الغريب ما يزال يظهر في المرآة، إلا أنّه لم يّعد مُخيفاً ومظلماً كما كان. إلا أنّ الجنيات كُنَّ يفزعنَ ويصرخنَ كلما رأينه، ويخبّئنَ أيديهنّ وأرجلهنّ، ثمّ يهرولِنَ في المكان من شدة الذعر. وحين تعود دوت إلى الظهور مجدداً، فهنّ يَعُدْنَ إلى الهدوء والسكينة التي تُضفيها عليهنّ صورتُها الجميلة.

لم يسبق لهنّ أنْ أظهروها بخلاف جمالها وإشراقها، إذ إنّهنّ كنّ الأرواحَ الحامية لهذا المنزل وللفناء الخارجي. ولكونهنّ هكذا، فقد كانت دوت دوماً معهنّ، ولكنها كانت الوحيدة، والنشطة، والمبتهجة، والصّغيرة واللطيفة وهي التي كانت النّور الساطع لمنزل الكافل!

كانت الجنيات متحمساتٍ بشكلٍ هائل حين ظهرت لهنّ دوت وبين يديها الطفل الصّغير، تهتم به وتلاعبه برفق. ثم تتكئ على ذراع زوجها برزانة، وتفكر فيه بوصفه سنداً لها مهما طال بهم الزمن. وكيف أمكن لأشخاصٍ أنْ يختاروا ألا يستندوا إلى من اختارهم القلب ملجأً لهم. وبنفس الوقت أظهروها له وهي تضحك خَجِلةً منه، ثم يسحبونه من قدمه ليأخذوه إلى الغرفة لتعليمه كيفية الرقص!

ثم أظهروا له الفتاة الكفيفة، وكيف أنّ دوت حملت البهجة والسرور معها أينما حلت، وكيف أدخلت السعادة إلى بيت كاليب بلامر وابنته المسكينة، وكيف جعلت الفتاة تحلمُ بغدٍ أفضل، حتى أصبحت ممتنةً لكل ما فعلته من أجلها. وثقت بها، وأحبتها من أعماق قلبها. ما أجمل تشجيعَها الفتاة الكفيفة على كل ما تفعله،

وطريقتها الخاصة في جعل الأمور مميزة، ومُساعدتها في الأعمال المنزلية، والعمل بجهدٍ لجعل العطلة تستحق الوقت والتعب الذي تبذله في يومها، وتوفير كل الأطعمة التي تُحبها الفتاة الكفيفة، وسلة التنزه، ولحم الضأن، وفطيرة لحم الخنزير، وزجاجات الجعة، حتى إنّ إشراقة وجهها في ذلك الوقت كانت تصل إلى السماء، بل تَشعرُ بأنّها جزءٌ مهمّ من المجتمع الذي تعيش فيه على الرغم من كونها لا تُبصر. ومرة أخرى ارتسم على مُحيّا الجنيات السرورُ لرؤيتها وهي تقوم بكل هذا، ومرة أخرى اجتمعن حول الكافل، بعضهنّ يصّور له ثيابها الجميلة وتنورتها التي يُحبّها ويحب أنْ يراها ترتديها، وكأنّهنّ يقلن له: «هل هذه هي الزوجة التي خانت ثقتك؟»

أكثر من مرة، بل مرّتين وثلاث مرّات في هذه الليلة الطويلة المُتعِبة، والمليئة بالتفكير والأفكار السلبية، أظهرنها له وهي تجلس على كرسيها المفضل، ويداها معقودتان، ورأسها مُنحني، وشعرها مُنسدل. وعندما وَجَدْنها تجلس هناك، اجتمعنَ حولها، يقبلّنها، يغنون معها، ويُصارع بعضهنّ بعضاً ويتقاتلن مِنْ أجل مَنْ ستكون الأفضل من بينهنّ في التعامل معها بلطفٍ وحب. لقد نسينَ الكافل تماماً، كان على كرسيه وحيداً ومرةً أخرى مُستغرقاً في التفكير بثِقل قلبه الحائر.

لم تلبث السماء بالظلام طويلاً. وهكذا، مرّ الليل كلمح البصر، ولكن بالنسبة إلى الكافل فقد كان مُجْهَداً مليئاً بالآلام والأثقال التي أرهقت روحه كثيراً. غَفا القمر، واختفت النجوم، وكُسِر البرد وأشرقت الشمس من جديد. ولا يزال الكافل جالساً في زاوية المدخنة، ويداه على رأسه طوال الليل. طوال الليل كان

الصرصار الوقيّ يُغرّد، يُغرّد ويغرّد فوق الموقد. طوال الليل كان يستمع إلى موسيقاه، طوال الليل كانت الجنيات الحارسات للمنزل معه. طوال الليل كانت الجِنيّات متألِّقاتٍ في الزجاج والمرآة، إلا في حينٍ واحد، حين ظهر ذلك الظلّ.

نهض الكافل من مكانه، ثم اغتسل وارتدى ملابسه. لم يستطع أنْ يُلاحق اليوم طموحاته - ولكنه مُجبرٌ أنْ يتماسك ويقف على قدميه؛ لأنّ اليوم هو يوم زفاف تاكلتون، إذ كان عليه بعض المُخططات لكي ينجزها. لقد اعتاد أنْ يذهب إلى الكنيسة مع دوت دائماً، ولكن هل يستطيع أنْ يذهب اليوم أيضاً! أوه، لقد تذكر أنّ اليوم هو ذكرى زواجهما أيضاً، يا إلهي كم تتغير الأحوال في سنة واحدة! هذا مؤلمٌ حقاً.

كان الكافل يتوقع أن يزوره تاكلتون اليوم باكراً، وقد كان مُحقّاً بالفعل. فهو لم يكمل بضع دقائق في السير جيئةً وإياباً أمام باب منزله حتى رأى صانع الألعاب في عربته يقترب من المنزل.

عندما اقترب تاكلتون من المنزل، وجده الكافل مُتزيناً من أجل زفافه. ويضع زينةً على الحصان والعربة: من الورود والأزهار من شتى الألوان والأشكال. بدا الحصان متألقاً وأشبه بالعريس أكثر من تاكلتون نفسه. كانت عينه النصف مفتوحة تبدو مخيفة أكثر من أي وقتٍ مضى، ولكن الكافل لم يُعِر انتباهاً لأي شيء، إذ إنّ عقله لم يكن معه في ذلك الوقت.

قال تاكلتون بنبرة تعزية: «جون بيري بينغل! صديقي الجيد، كيف أصبحتَ اليوم؟»

قال الكافل وهو يهز رأسه: «لقد حظيت بليلةٍ مُثيرةٍ للشفقة يا مستر تاكلتون. إذ كنت أدور في متاهاتٍ لا نهاية لها، ولكن كل شيءٍ انتهى الآن. هل بإمكانك أنْ توفر لي نصف ساعة من وقتك، أريد أن أحادثك على انفراد!»

قال تاكلتون وهو يترجل من العربة: «لقد أتيت لهذا الشأن. لا تُبالِ بشأن الحصان، سيبقى هادئاً جدّاً إنْ استطعت أنْ توفر له بعض القشّ».

توجه الكافل إلى الإسطبل وجلب معه القش ووضعه أمام الحصان، ثم توجه هو وتاكلتون إلى داخل المنزل.

قال له: «الزفاف ليس قبل وقت الظهيرة على ما أعتقد، أليس كذلك؟»

أجابه تاكلتون: «لا. لدينا متسعٌ من الوقت، متسعٌ كثيرٌ من الوقت».

عندما دخلا المطبخ، وجدا الآنسة سلوبوي تقرع باب الغريب الذي لا يبعد سوى بضع خطواتٍ عنها، وعيناها محمرَّتان، (لقد كانت تبكي طوال الليل لأنّ سيدتها كانت تبكي طوال الليل أيضاً)، وتنظر من ثقب الباب، وتطرقه بصوتٍ عالٍ جداً وبدت خائفة.

قالت تيلي وهي تنظر حولَها: «أستميحك عذراً، ولكنْ عليَّ ألّا أسمح لأحدٍ بأنْ يسمع أي شيء. آمل ألّا يذهب أحدٌ أو يموت إذا سمحت!».

هذه النزعة الإنسانية التي صدرت عن الآنسة سلوبوي وهي تطرق الباب لم تؤدِّ إلى شيءٍ قَطّ.

قال تاكلتون: «عليَّ الذهاب؟ أمرٌ غريب يحصل».

الكافل الذي أدار وجهه عن الآنسة سلوبوي نظر إلى تاكلتون وأشار إليه برأسه إنْ كان يرغب في الذهاب فليذهب. وهكذا سار تاكلتون تجاه الآنسة سلوبوي، وأخذ يطرق الباب بقوة ولكن ما من استجابة، حاول أنْ يُمسك مقبض الباب لعلّه يُفتح ويتمكن من الدخول ولكنه لم يستطع أيضاً، فحاول أنْ يطرقه بقوة، فُتِح الباب، ودخل إلى هناك، رأى ما يحصل، وسرعان ما عاد مُسرعاً إلى الخارج.

همس تاكلتون بأذن جون: «جون بيري بينغل! أتمنى ألا يكون قد حصل - قد حصل أمرٌ طائش ومتهور في الليل؟»

التفت الكافل إليه سريعاً.

قال تاكلتون: «لأنّه اختفى! والنافذة مفتوحة. ولا أرى أي علاماتٍ لأي شيء، ودعني أكُنْ صادقاً فإنّ النافذة تقريباً عند مستوى الحديقة، ولكن على الأقل فيجب أنْ تكون هنالك علامات عراك، أليس كذلك؟»

نظر إليه جون بكل قوة، نظر إليه مباشرةً في الوجه والعينين وهو على مستوى وجهه، بِحدّة وشتات في نفس الوقت.

قال له الكافل: «هوّن على نفسك، لقد دخل الغرفة الليلة الماضية دون أنْ أقترب منه أو أتكلّم بكلمةٍ معه، ولم يدخل أحدٌ الغرفة بعد ذلك. لقد خرج بإرادته. أتمنّى أن أذهب إلى كل البيوت المجاورة وأشكرها واحداً واحداً لو أمكنني العودة بالزمن وعدم إحضاره إلى المنزل معي، ولكنه قد أتى وذهب، وقد انتهيت منه!».

قال تاكلتون وهو يجلس على كرسي: «أوه، أظن أنّه نجا بكل سهولة».

اختفت النّظرة الساخرة عن وجه الكافل، في الوقت الذي كان يُحضر فيه كرسياً ليجلس، ظَلّل وجهه بيديه بعض الوقت قبل أنْ يتابع حديثه.

قال: «لقد أريتَني البارحة زوجتي، زوجتي التي أحبها، بالسّر...»

لمح له تاكلتون: «وبرفقٍ أيضاً».

«تتغزل بذلك الرّجل في الخفاء، وتعطيه الفرصة للقائها وحيدة. لم أكن لأريد أنْ أرى هذا المشهد طوال حياتي. ولا أعتقد أنّ هنالك رجلاً كان يريد أنْ يرى هذا المشهد، وأيضاً لا أعتقد أنّ هنالك رجلاً في العالم يودُّ أنْ يريني هذا المشهد».

قال تاكلتون: «أعترف أحياناً بأنّ لديّ شكوكي، وهذا ما جعلني مرغوباً عنّي هنا. أنا أعلم».

أكمل الكافل غير مهتمّ به: «ولكن بما أنّك أريتني، وبما أنّك رأيت زوجتي، زوجتي التي أحبها...»، كلما كرر هذه الكلمات، ازدادت عيناه، ويداه، وصوته ثباتاً ومتانة، وكأنّه يريد تحقيق غرضٍ ثابت ومتين. «بما أنّك رأيتها في موضعٍ ليس بمحمود، فمن الصواب والحق أنْ ترى بعينيّ، وتنظر وتشعر بما في قلبي وصدري، وأنْ ترى ما في عقلي حول هذا الموضوع. لأنّه استقر». ثم قال له فيما يتعلق بانتباهه، «ولا شيء يمكن أنْ يُحييه الآن».

همس تاكلتون بعض الكلمات التي تدلّ على موافقته، حول كون الأمر ضرورياً للدفاع عنه، ولكنه كان قد تأثر بطريقة صديقه. إنّه لأمرٌ جليّ وغير مصقول، أو كما كان بنظر الكافل. لربما فيه شيءٌ من النبالة والبسالة.

أكمل الكافل: «أنا رجلٌ عادي، وسهل ولكن خشن. لستُ رجلاً ذكياً كما تعلم، ولست رجلاً شاباً. لقد أحببت دوت وعلق قلبي بها، لأنني رأيتها تكبر في بيت والدها منذ أنْ كانت طفلةً صغيرة، ولأنني أعلم كم هي غالية وثمينة، ولأنّها كانت حياتي أعواماً وأعواماً. هنالك الكثير من الرّجال الذين لا يُمكن مُقارنة حبهم لدوت بحبي أنا لها، على ما أعتقد!».

توقف لحظةً، ضرب بقدمه الأرض برفق قليلاً قبل أنْ يكمل، ثم تابع.

«لطالما ظننتُ أنني لستُ كافياً لها. عليَّ أنْ أكون الزوج المثالي لها لأنّها تستحق، وأنا أعلم قيمتها أكثر من أي شخصٍ آخر. وبهذه الطريقة تصالحت مع نفسي، ووجدت أنّه من الممكن أنْ نتزوج، وبالفعل هذا ما حصل لقد تزوجنا».

قال تاكلتون وهو يهز برأسه بشدة: «هااه!»

تابع الكافل: «لقد درست نفسي جيداً، لقد أصبحت خبيراً بنفسي، أعلم كم كنتُ أحبها وكم كان عليّ أنْ أكون سعيداً؛ ولكنني لم أكن، وأمّا الآن فأنا أشعر بأنني لم أكن كافياً لها».

قال تاكلتون: «للتأكيد، الدوخة، والتقلب، والطيّش، وحب الإعجاب! لا يُعتبر كذلك! وكل ما تبقى، غير ذلك، فهو بعيد عن الأنظار، ها؟»

قال الكافل ببعض الحزم: «من الأفضل لك ألّا تُقاطعني حتى تفهم ما أقصده، خاصة أنت بعيدٌ كل البعد عن ذلك. ففي البارحة، كنتُ قد ضربت ذلك الرجل لأنّه قد تجرأ على التنفس في وجهها فقط، واليوم فإني قد أضع قدمي في نصف وجهه حتى لو كان أخي!».

نظر إليه صانع الألعاب بدهشة. ثم أكمل الكافل بنبرة أقل حدّة:

«هل أخذتُ بعين الاعتبار أنني أخذتها في سنّها، وبجمالها، من رفاقها الشّبان، ومن المشاهد الكثيرة التي كانت هي زينتها، والتي كانت هي النجم الأصغر والأكثر سطوعاً في ذلك الوقت، لأغلق الباب عليها يوماً بعد يوم، وأجعل حياتها كئيبة ومملّة؟ هل أخذتُ بعين الاعتبار روحها المرحة التي عليَّ أنّ أُناسبها، وكم هو مرهقٌ ومتعب على رجلٍ كادح مثلي أنْ يُجاري روحها الخفيفة؟ هل أخذتُ بعين الاعتبار أنّه ليس جديراً بي أن أقول: إنني الوحيد الذي يحبها، بينما يفعل ذلك الجميع، وكل من يعرفها؟ أبداً. لقد كنتُ أفكر في نفس فقط، في طبيعتها التي كنت أريدها، في حيويتها وبهجتها وابتسامتها، ثمّ تزوجتها! وليت ذلك لم يحدث قطّ، لأجلها وليس من أجلي!».

دَهِش صانع الألعاب مما قاله الكافل، ونظر إليه مُدهوشاً دون أنْ يَرمش، حتى إنّ عينه النصف مفتوحة باتت الآن مفتوحةً كلها.

قال الكافل: «فلتباركها السماء! لكل البهجة التي حاولت أنْ تُضيفها إلى حياتي! ولتساعدني السماء، لأنني لم أفكر في هذا الأمر من قبل في عقلي الذي يدرك الأمور متأخرة. فتاةٌ مسكينة! مسكينةٌ دوت! من كان قد رآها والدموع تملأ عينيها حين تم إعلان خبر زواجنا؟ أنا، أنا الذي رأيت التلبك والحزن في عينيها، ورأيت تلعثمها بالكلام، ولكنني لم أدرك الأمر إلّا الليلة الماضية. فتاةٌ مسكينة! وأنا كنتُ أنتظر أنْ تُغرم بي، وظننت أنّ هذا سيحصل حقاً!».

قال تاكلتون: «لقد أظهَرتُ ذلك علناً، لقد أظهرتُه بكل وضوح، لأخبرك بالحقيقة التي لطالما كانت واحدة من شكوكي!».

وهنا تيقّن بوضوح من أنّ ماي فيلدينغ لم تُظهر له أي نوعٍ من الإشارة أو التعامل في كونها مُغرمةً به.

قال الكافل المسكين بعاطفةٍ أكبر مما أبداها من قبل: «لقد حاولت، الآن فقط بدأت أعلم كم كانت تحاول جاهدة أنْ تكون زوجتي المطيعة والمُخلصة. كم كانت جيدة، وكم فَعلت من أمورٍ جيدة! كم كان قلبها قوياً وتحمّل الكثير. فلتكن السعادة التي حصلت أسفل هذا السقف شاهداً على أنني سأحظى ببعض الراحة والهدوء حين أكون هنا وحيداً بسببها».

قال تاكلتون: «هنا وحيداً؟ أوه، أتقصد أنّك ستتخذ الإجراء المناسب لهذا الأمر؟»

أجابه الكافل: «أعني أنني سأقوم بأعظم فضلٍ عليها، وأعوّضها بأفضل ما يمكن، بكل ما أوتيت من قوة. أستطيع أنْ

أحرّرها من قالب الزواج المؤلم وغير العادل هذا، والكفاح لإخفائه. عليّ أنْ تكون حرة بقدر ما أستطيع!».

قال تاكلتون وهو يحرك بأذنيه: «تعوضها بكل ما تستطيع! لا بدّ من وجود خطأ ما هنا، أنت لم تقل هذا الآن، صحيح؟»

أَحْكَم الكافل قبضته على قلادة صانع الألعاب وهزّه بشدة ثم قال له:

«استمع إليّ! واحرص على أنْ تسمعني جيداً، استمع إليّ. هل أتحدث بوضوح؟»

أجابه تاكلتون: «أجل، بكل وضوح، بالتأكيد».

«كما لو كنتُ أعنيها؟»

«كما لو كنتَ تعنيها وأؤكد هذا».

قال الكافل: «لقد جلست على هذا الموقد الليلة الماضية، طوال الليل. في البقعة التي كانت تجلس فيها بجانبي دائماً، وتنظر بوجهها الجميل إليّ. كنتُ استدعيها طوال حياتي، يوماً فيوماً. لقد كانت تجلس عزيزة النَّفس أمامي، في كل الأحوال. وفي روحي هي بريئة، إنْ كان هنالك من سيحكم على الأبرياء والمذنبين!».

صرصار الليل الوفيّ على الموقد! والجنيات حرسات البيت المُخلصات!

قال الكافل: «العاطفة والثقة قد هجرتا! ولا شيء إلا حزني سَيُخلَّد معي. أعتقد أنّه في اللحظات غير السعيدة التي كانت ستمر

بها، فلو كان بجانبها أحدُ أحبابها القدماء، لكان استطاع أنْ يفهم حاجتها، على ما أعتقد. في الأوقات غير المُبهجة التي تأتي على حين غرّة، وتجلس تفكر فيما فعلتْه، فقد جعلت نفسها طرفاً في الخيانة ولكنها فضلت إخفاء الموضوع على الجهر به. لقد كانت الليلة الماضية معه، في ذلك الوقت الذي رأيناهما معاً. لا أنكر أنا ولا هي تنكر أنّ ما حدث كان ذنباً عظيماً، ولكن بخلاف هذا فإنّها بريئة، هي بريئةٌ إذا كان هنالك أي عدالة في هذه الأرض!».

بدأ تاكلتون يقول: «إذن كان هذا رأيك...»

قاطعه الكافل قائلاً: «لذا، فسأدعها تذهب! فلتذهب ببركاتي كلّها لكل الأوقات التي وهبتني فيها السعادة، ومغفرتي لها لكل انقباضةٍ تسببتْ لي بها؛ سأسمح لها بالمغادرة. وأتمنى لها أنْ تتمتع براحة البال والسكينة! أعلم أنّها لن تكرهني يوماً، ولكنها ستحبني أكثر إنْ لم أكن سبب الألم الذي تعاني منه. هذا هو اليوم المشؤوم الذي أخذتها من بيتها الذي كانت تنعم فيه ببعض الراحة والسعادة، واليوم هو اليوم الذي ستعود إليه ولن أكون سبب متاعبها بعد الآن. والدها ووالدتها سيكونان هنا اليوم، لقد أعددنا خطة لنبقي الموضوع في الجانب الآمِن، وسوف تعود إلى المنزل معهما. أنا أثق بها، هنا وفي أي مكانٍ آخر. ستتركني ولكن دون ندم، وسوف تعيش حياتها التي تمنتها دائماً، أنا متأكدٌ من ذلك. إذا كان من المُحتَّم عليّ الموت فأفضل أنْ يكون هذا وهي لا زالت شابة، لقد خسرتُ كثيراً من ثقتي بنفسي وشجاعتي في الساعات الأخيرة. ستكتشف دوت أنني أتذكرها دائماً، وستَعلم أنني أحببتها دائماً حتى النهاية! هذه نهاية الأمر الذي أريتَني إياه يا تاكلتون، لقد انتهى!».

«أوه، لا يا جون، لا تقل هذا، لم ينته الأمر بعد. لا تقل إنّه انتهى! ليس بعد. لقد سمعت كلماتك النبيلة. لن أستطيع التَملق والابتعاد وتجاهل ما أصابني من امتنان عميق. لا تقل إنّه انتهى، «حتى دقت الساعة مرةً أخرى!».

كانت دوت قد دخلت بعد تاكلتون بوقتٍ قصير وبقيت هناك هادئة. لم تنظر إلى تاكلتون قطّ، ولكن عينيها كانتا مصوبتين على زوجها. لم تقترب منه، بل جلست بعيدةً عنه قدر الإمكان، وعلى الرغم من أنّها تحدثت بكل حُرقة إلا أنّها لم تقترب ناحيته حتى في ذلك الوقت. كم تختلف الآن عن نفسها القديمة!

أجابها الكافل بابتسامة خافتة: «لا يد يُمكنها أنْ تُعيد دقات الساعة التي ضربت إلى وقتها الماضي. ولكن فلندع الأمر يحصل إنْ كان مُقدراً له هذا يا عزيزتي. سوف تَضرب الساعة مجدداً، إنّها قليلة الشأن مُقارنةً مع ما نقوله. سأحاول أنْ أُكرمكِ وأُرضيكِ حتى لو كان أصعب من هذا».

همس تاكلتون: «حسناً، عليّ المغادرة! فحين تدقُّ الساعة في المرة القادمة فعليَّ أنْ أكون في طريقي إلى الكنيسة. فليَسعد صباحك يا جون بيري بينغل. آسف على الحرمان الذي أصابك، آسفٌ على كل ما حصل!».

قال الكافل وهو يرافقه إلى الباب: «هل كنتُ أتحدث بوضوح؟»

«بوضوح تامّ».

«وهل ستتذكر ما قلته لك؟»

قال تاكلتون قبل أنْ يتخذ الإجراءات اللازمة للوصول إلى مقعده في العربة: «إنّ كنتَ تحاول إجباري على قول بعض المُلاحظات، فسأقول لكَ أنني ذهلت لما قلتَه ولم أتوقعه قطّ، ويستحيل أنْ أنساه يوماً».

أجابه الكافل: «هذا أفضل لنا نحن الاثنين. إلى اللقاء، أتمنى لكَ السعادة!».

قال تاكلتون: «أتمنى لو أستطيع أنْ أتمنى لك السعادة أيضاً، وبما أنني لا أستطيع فأنا أشكرك جداً. بيني وبينك (كما قلت لكَ سابقاً!)، فأنا أيضاً لا أعتقد أنني سأحظى بتلك السعادة في حياتي الزوجية، إذ إنّ ماي لم تُظهر لي حُبّها حتى الآن. إلى اللقاء، اهتمّ بنفسك جيداً!».

وقف الكافل يُراقبه وهو يغادر حتى أصبح يُرى صغيراً من بعد المسافة هو وحصانه وإكليل الورود الذي يزين به عربته. ثم بعد ذلك، وبتنهيدةٍ عميقة بدأ جون السير قلقاً، مكسوراً، ضيّق الصدر بين أشجار الدردار في الجوار، ولا ينوي العودة إلى المنزل حتى تدق ساعة العَشية.

زوجته الشابة التي تُركت وحيدة في المنزل، تبكي بحرقة. وبين الحين والآخر تَمسح دموعها وتنظر إلى نفسها وتبدأ بالتفكير كم كان جيداً معها! كم كان حنوناً وشغوفاً بها! ومرةٍ أو مرّتين ضحكت بقوة، من أعماق قلبها؛ ضحكة حقٍّ وقهرٍ معاً (وكانت تبكي طوال الوقت)، حتى إنّ تيلي أُصيبت بالذعر.

قالت تيلي: «أرجوكِ لا! ما تفعلينه كفيلٌ بدفن الطفل حياً، إذا سمحتِ!».

قالت لها سيدتها وهي تمسح دموعها: «هل بإمكانكِ أنْ تُحْضِري الطفل بين الفينة والأخرى ليرى والده يا تيلي، إذا بقيتِ هنا، لأنني لن أعيش هنا بعد الآن وسأذهب إلى منزل والديّ؟»

أجابتها تيلي: «أوه لا، أرجوكِ لا!»، وأسقطت رأسها في حِجْرها وانفجرت بالبكاء، وبدت لحظةً ما كالكلب بوكسر، «أوه، أرجوكِ لا! ما الذي يحصل مع الجميع، ما الذي فعله الجميع، ما الذي حصل وجعل الجميع تعساء هكذا! أوه، أوه، أوه!».

ازداد بُكاء سلوبوي، قلبها الرقيق كان يوشك أن ينفجر ألماً، لما يحدث لسيدتها. بكت كأنّها تُخرج كآبة سنواتٍ من قلبها في هذه اللحظة. الجو الكئيب، وبكاء السّيدة والآنسة سلوبوي جعل الطفل يبكي بحرقةٍ أيضاً، لا يدري ما يحصل ولكن بدا كأنّه يشعر بقلبه ما كانتا تشعران به، ولكن لم يكن شعوراً جيداً. إذا لم تكن عيناها قد صادفتا كاليب بلامر، إلا أنّ ابنته قادتها إلى الطريق. هذا المشهد، أعاد إليها بعض الذكريات الغريبة. وقفت بضع دقائق صامتة وفمها مفتوحٌ على مصراعيه، ثم انحنت ناحية سرير الطفل الذي ينام فيه ورقصت بطريقة غريبة، طريقة تشبه رقص القديس فيتوس على الأرض، وفي نفس الوقت كانت تبعثر في وجهها وفي أغطية السرير، على ما يبدو أنّها تسترجع بهذا قوتها بهذه الطرق الاستثنائية.

قالت بيرثا: «ماري! ألن تأتي إلى حفل الزفاف؟»

همس كاليب: «لقد أخبرتُها أنّكِ قد لا تذهبين يا سيدتي. لقد سمعتُ ما فيه الكفاية ليلة البارحة، فليباركِ الله!» ثم أخذ بيدي ابنته الناعمتين وأكمل، «أنا لا أهتم بما يقولون، ولا أصدقهم. لا أعلم إنْ كان هنالك أشخاصٌ مثلي في هذا العالم، ولكنني لن أسمح بأنْ يتم قول أي كلمة ضدكِ».

وضع يديه حولها وضمّها كطفلةٍ صغيرة، كما لو أنّ طفلاً صغيراً يضم إحدى ألعابه ببراءة.

قال كاليب: «لم تستطع بيرثا أنْ تبقى في المنزل هذا الصباح. لقد كانت خائفة على ما اعتقد؛ أنْ تسمع صوت أجراس الكنيسة ولا تكون معهم في حفل الزفاف. لذا، فتجهزنا في الوقت المناسب وأتينا إلى هنا. لقد كنتُ أفكر في الذي كنتُ أفعلهُ»، توقف لمحةً ثم أكمل، «لقد كنتُ الوم نفسي كثيراً حتى تُهت في متاهات لا مخرج لها، لم أعد أدري ماذا أفعل أو في أي جهة أسير. لقد تسببتُ لها بألمٍ كبيرٍ جداً لا يمكن لإنسان أنْ يحتمله، على الرغم من أنّه كان بإمكاني أن أفعل أفضل من هذا. هل تستطيعين أنْ تبقي معي حتى أخبرها بالحقيقة يا سيدتي؟ أيمكنكِ فعل هذا؟» تلعثم بالكلام وهو يهز رأسه ثم أكمل، «لا أدري ما التأثير الذي قد يقع عليها، ولا أدري ما الفكرة التي سوف تترسخ في عقلها عني، لا أدري إنْ كانت ستهتمّ بوالدها الفقير والمسكين بعد أنْ تعلم. ولكن التصرف الصحيح هو إخبارها، وعليّ أن أحتمل العواقب مهما كانت لأنني من تسببت بها».

قالت بيرثا: «ماري، أين يداكِ؟ آه ها هما، ها هما!»، ضغطت على شفتيها، وأحكمت إمساك يديها بذراعيها مع ابتسامة خفيفة،

«سمعتهم يتحادثون عنكِ بهدوء الليلة الماضية، وجّهوا إليك بعض اللوم، إنّهم مُخطئون».

لم تتحدث زوجة الكافل، وأجاب كاليب عنها.

«لقد كانوا مخطئين».

قالت بيرثا بثقة: «كنتُ أعلم هذا! لقد أخبرتهم. كانت سخريةً بحق سماع تلك الكلمات! ضعوا بعدل اللوم عليها!»، ضغطت بيرثا بقوة على يديها، ووجهها الوردي مقابل وجه زوجة الكافل، «لا! لستُ عمياء إلى هذه الدرجة».

غيّر والدها مكان جلوسه إلى جانبها، وبقيت دوت على الجانب الذي هي عليه.

قالت بيرثا: «أنا أعرف كل واحدٍ منكم أكثر مما تتصورون. ولكن ليس مِثلها، ولا أنت يا أبي. هنالك نصف حقيقة عني لا يمكن إنكارها. إنْ حدثت معجزة واستعدت نظري في هذه اللحظة، ودون أي كلمة تُنطق، لكنتُ اخترتها من بين الآلاف الحشود، هي شقيقتي!».

قال كاليب: «عزيزتي بيرثا! هنالك شيءٌ مهم عليّ إخبارك به ما دام ليس هنالك أحدٌ هنا غيرنا نحن الثلاثة، لذا فاستمعي إليّ جيداً وافهمي ما سأقوله! هنالك اعترافٌ لكِ يا عزيزتي».

«اعتراف يا أبي؟»

قال كاليب بتعابير وجهٍ تدل على الشفقة والارتباك: «لقد تهتُ في دوامات الحقيقة وفقدتُ نفسي يا طفلتي، لقد تهتُ عن الحقيقة لأكون لطيفاً وكريماً معكِ، ولكن تبين أنني كنت قاسياً».

أدارت وجهها المليء بالحيرة نحوه وقالت: «أأنتَ قاسي!».

قالت دوت: «إنّه يتهم نفسه بكونه قوياً يا بيرثا. وأنتِ ستقولين هذا في الوقت الحاضر. وستكونين أول من يقول له هذا».

ابتسمت بيرثا ابتسامة شك وقالت: «كان قاسياً معي!»

قال كاليب: «ليس عن قصدٍ يا طفلتي. لم أكن لأشك في الأمر مُطلقاً حتى البارحة. يا صغيرتي الجميلة والكفيفة، استمعي إليّ وسامحيني! العالم الذي تعيشين فيه ليس حقيقياً، إنّه حاضر فقط في قلبي. العيون التي كنتِ تثقين بها قد خدعتكِ».

وأدارت وجهها المرتبك نحوه مرةً أخرى، ولكنها قد عادت إلى الوراء قليلاً والتصقت بصديقتها دوت.

قال كاليب: «طريقي في الحياة قد كان عنيفاً، يا طفلتي المسكينة. وقد كنتُ دائماً، دائماً أجعله سهلاً لكِ. لقد غيّرتُ أشياءَ، غيّرتُ في شخصيات بعض الناس، اخترعتُ أموراً كثيرة لم تكن في الأصل، فقط لأجعلكِ سعيدة. أخفيت عنكِ كل شيءٍ سيّئ، خدعتكُ مراراً وتكراراً، يا إلهي اغفر لي! وقد حوّطتك بالأحلام الوردية والخيال اللذين لا وجود لهما».

قالت بسرعة وقد بدا على وجهها الشحوب، وهي لا تزال تبتعد عنه: «ولكن الناس الأحياء ليسوا خيالاً، لا يمكنك تغييرهم هكذا فقط!».

اعترف كاليب: «هذا ما فعلته يا بيرثا. هنالك شخصٌ واحد أنتِ تعلمين من هو، يا يمامتي الحبيبة...»

قاطعته في محاولةٍ لعتابه: «أوه يا أبي! لِمَ تقول إني أعلم؟ مَنْ هم الذين أعرفهم الآن؟ من هو قدوتي الآن؟ أنا عمياء وبائسة».

في ظل تحطم قلبه، مدت يدها كما لو أنّها تتلمس طريقها، ثم بتعبير حزينٍ ومؤلم فإنها وضعت يدها على وجهها.

قال كاليب: «حفل الزواج الذي يجري اليوم، هو لرجلٍ صارم، وقذر، وحقير. لقد كان على مدار سنوات وسنوات مديراً قاسياً لي ولكِ يا عزيزتي. هو قبيح في مظهره وطبيعته، بارد وقاسي القلب دائماً، ليس كما وصفتُه لكِ بدأت عزيزتي. إنّه يختلف كل الاختلاف وفي كل شيء عما وصفته، في كل شيء».

بدأت الفتاة الكفيفة بالصراخ، كما لو أنّها تتعرض للتعذيب ولم تَعد تحتمل. قالت له: «لماذا، لماذا فعلت هذا؟ لماذا ملأت قلبي بالحب والجمال وبكل ما هو جميل، ثم أتيت إليّ كالموت وامتصصت كل ما هو حيّ في داخلي! يا إلهي، كم أنا عمياء حقاً! كم أنا عاجزة ووحيدة!».

ضم والدها رأسَه بين يديه، لم يتكلم ولكن عذابه وألمه كانا يتحدثان بصخب.

لقد كانت هائمة في شعور الندم، حتى بدأ صرصار الليل على الموقد بالتّغريد ولم يسمعه أحدٌ سواها. لم يُغرد بلطف، بل بصوتٍ خافت مليء بالألم والمعاناة. كان صوته حزيناً جداً إلى درجة أنّ دموعها بدأت بالتدفق. تلك الظلال التي ظهرت للكافل في الليل، ظهرت خلفها وبدأت تُشير إلى والدها، ثم أخذت دموعها تنهمر كالمطر.

بعد ذلك بقليل سمعتُ صوت الصرصار بوضوحٍ، ولكن على الرغم من عدم إبصارها إلا أنّها كانت تَعي كل ما حولها، حتى على الظلال التي تحوم حول والدها.

قالت الفتاة الكفيفة: «يا ماري، أخبريني كيف يبدو منزلي. أخبريني بصدق كيف يبدو».

«مكاناً فقيراً جداً يا بيرثا، فقيراً وباهتاً. نادراً ما يستطيع الصمود في وجه الرّياح والأمطار في الشتاء، كما إنّه يُقاوم بصعوبة ليكون مكاناً آمناً لكم في الجو العاصف يا بيرثا». ثم قالت دوت بنبرة منخفضة ولكن واضحة: «كما هو والدكِ الفقير بمعطفه البالي المصنوع من الأكياس القماشية».

وقفت الفتاة الكفيفة بغضب وأخذت بيد زوجة الكافل جانباً. ثم قالت وهي ترتجف:

«تلك الهدايا التي أعتني بها بشدة، والتي أتت حسب رغبتي تقريباً وكانت عزيزة على قلبي كثيراً؛ من أين أتت؟ هل أنتِ مَنْ أحضرها؟»

«لا».

«ممّن إذن هي؟»

أدركت دوت أنّ الفتاة علمت من أحضر الهدايا، ولكنها اختارت أنْ تبقى صامتة. ثم وضعت الفتاةُ الكفيفة يديها على وجهها ولكن بطريقة مختلفةٍ تماماً.

«عزيزتي ماري، لحظة، لحظة من فضلك! كَلّميني بكل صدقٍ الآن. أنتِ تخبرينني بالحقيقة أنا أعلم. أنتِ لا تخدعينني أليس كذلك؟»

«لا، من غير ريب لا يا بيرثا».

«لا، أنتِ لا تفعلين هذا. أنتِ تشفقين عليّ كثيراً. ماري، انظري خلال الغرفة، انظري حيث كنا جالسين، انظري حيث أبي – أبي الذي لطالما كان مُهتماً بي ويحبني، وأخبريني بما ترينه».

فهمت دوت تحديداً ما تريد، قالت: «أرى رجلاً عجوزاً يجلس على الكرسي، وينحني بحزنٍ شديد ويداه على وجهه الشاحب. أفليس على طفلته أنْ تُريحه يا بيرثا؟»

«أجل، أجل من غير شك سأفعل. أكملي الآن».

«إنّه رجلٌ عجوز، يهتمّ بمنزله وعمله. إنّه هزيل، كئيب، عميق التفكير ذو شعرٍ رمادي. أراه الآن قانطاً وساجداً، ويسعى ضد لا شيء. ولكن يا بيرثا؛ لقد رأيته في حالاتٍ كثيرة يسعى لتمجيد شيءٍ واحد، وأنا أحترم شَعْرَه الرمادي، وأسأل الله أنّ يبارك فيه!».

ابتعدت الفتاة عنها مُسرعة تجاه والدها، سقطت بقوة على ركبتيها وأمسكت برأسه وبشعره الرمادي ووضعتهما على صدرها.

قالت بحزن: «لقد عاد إليّ بصري، لقد عاد. لقد كنتُ عمياء حقاً، ولكن الآن عيناي مفتوحتان. لم أكن أعرفه جيداً! لكنت قد مِتّ وأنا لا أعلم مَن هو أبي الذي أحبني بصدق!».

في هذه اللحظة، لم تكن هنالك كلماتٌ كافية لوصف مشاعر كاليب.

أكملت الفتاة الكفيفة وهي تحضنه بقوةٍ أكبر: «ليس هنالك من كائن على هذه الأرض سيكون مثله عزيزاً عليّ وغالياً على قلبي! ذو الشعر الرمادي، والذي يهتم بكل شيء، هو أبي الغالي! لا تسمح لهم مجدّداً بأنْ يقولوا إنّي لا أبصر. ليس هنالك من تجعّدٍ في وجهه، وليس هنالك من شعرٍ على رأسه يمكنني أنْ أنساه لحظة واحدة، وسأدعو ربَّ السماء أنْ يحفظه لي، وسأشكر ربّ السماء دوماً على هذه النعمة!».

تمكن كاليب من التعبير الآن بكلمةٍ واحدة: «بيرثا حبيبتي».

قالت الفتاة وهي تمسح دموعه بفرح: «وفي عدم إبصاري، صدقته. أنا فعلاً مختلفةٌ عن الآخرين! فهو رفيقي في حياتي، وهو حاضر إلى جانبي كل يوم، ويحبني دائماً، وهذا كل ما أريده!».

قال كاليب المسكين: «الوالد الوسيم ذو المعطف الأزرق قد اختفى، يا بيرثا».

أجابته: «لم يختفِ شيء يا أبي العزيز، لا! كل شيءٍ حاضر هنا، في داخلك. الوالد الذي أحببتُه دوماً، الوالد الذي لم أعطه القدر الكافي من الحب يوماً، والذي لم أعلم يوماً أنّه كان الحبّ الأول وسيبقى الحب الأبدي لي؛ لأنّك دوماً تعطف عليّ، وكل شيءٍ حاضر فيك، كل شيء. لم يمت شيءٌ في نظري. الروح الأعزّ على قلبي ما زالت هنا - هنا، بوجهه الجميل، وبشعره الرمادي. وأنا لم أعد عمياء يا أبي، لستُ بعد الآن عمياء!».

كان تركيز دوت خلال الحوار مُصوباً نحو الأب وابنته، ولكن الآن هي تنظر إلى الساعة الهولندية وإلى صانع التبن الذي

يقف فوقها، ورأت أنّ الساعة على بُعد دقائق سوف تدق، فانهمرت فوراً، وهي في حالة من القلق والانفعال.

قالت بيرثا مترددة: «أبي، ماري».

أجابها كاليب: «أجل عزيزتي، ها هي هنا».

«لم يحدث أي تغيير هنا. لم تخبرني يا أبي بأي شيءٍ غير صحيح عنها، أليس كذلك؟»

أجابها كاليب: «أخاف أني قد فعلت هذا يا عزيزتي، أتمنّى لو كنتُ وصفتها بأفضل مما هي عليه. ولكنني أخشى أنني لم أوفيها حقها في الوصف، لا يمكن لشيءٍ أنْ يصفها يا بيرثا».

كم شعرت الفتاة الكفيفة بالفخر والثقة حين سألت السؤال، السرور والسعادة اللذان تملكا قلبها كانا أكبر مما يمكن وصفه، لقد جعلاها تذهب إليها وتضمها بقوة.

قالت دوت: «قد تحدث تغييرات أكثر مما تتوقعين يا عزيزتي. تغييرات إلى الأفضل أقصد، تغييرات سعيدة لبعضٍ منّا. وحين تأتي إليكِ تشبثي بها ولا تدعيها تبتعد عنك. ولو حدث أي شيء، لا تَدَعيه يؤثر فيك، اتفقنا؟ هل هذه أصوات عجلاتٍ على الطريق؟ سمعُكِ أفضل يا بيرثا، هل هذه عجلات؟»

«أجل، هي قادمة بسرعة كبيرة».

وضعت دوت يدها على قلبها، وتحدثت بسرعة محاولةً إخفاء حالة نبض قلبها الشديد: «أنا – أنا – أنا أعلم أنّ لديكِ أُذُنين خارقتين. لقد لاحظت هذا كثيراً، وأنكِ قد اكتشفت بسرعة خطوات

الرجل الغريب البارحة. فأنتِ قلت يا بيرثا، وأنا أتذكّر هذا تماماً، «خطوات من هذه!»، ولا أعرف بالتحديد كيف تسنّى لك أن تدركي أنها كانت خطوات غريبة عنك. وهكذا فكما كنت أقول، هناك تغييرات كثيرة تحدث حول العالم، وليس هنالك من شيءٍ في يدنا أنْ نفعله سوى أنْ نهيّئ أنفسنا بكل قوانا لكل ما سيأتي».

تساءل كاليب عما كانت تقصده في كلامها، مُدركاً أنّها كانت تتحدث إليه بقدر ما تتحدث إلى ابنته. رآها بدهشة، متذبذبة وخائفة إلى درجة أنّها بصعوبة تستطيع التنفس؛ وتستند إلى كرسي حتى تمنع نفسها من السقوط.

قالت وهي تلهث: «إنّها عجلات دون شك، تقتربِ أكثر فأكثر! تقترب كثيراً! والآن تسمعينهم يتوقفون عند بوابة الحديقة! والآن تسمعين خطواتٍ قادمة نحو الباب - نفس الخطوات يا بيرثا، هل هي كذلك! والآن!»

صرخت دوت بقوة واندفعت بطريقة جنونية غير قادرة على السيطرة على نفسها نحو كاليب، وغطت عينيه بينما دخل شابٌ إلى الغرفة، ورفع قبعته في الهواء ملتفتاً إليهم.

صرخت دوت: «هل انتهى الأمر؟»

«أجل!».

«نهاية سعيدة؟»

«أجل».



قالت دوت: «هل ميّزت الصوت يا عزيزي كاليب؟ هل سمعت صوتاً يُشبهه من قبل؟»

قال كاليب وهو يرتجف: «إنْ كان ولدي في جنوب أمريكا الذهبية حياً!».

صرخت صرخة قوية وهي تزيح بيديها عن عينيه وتصفق بهما: «إنّه حي، انظر إليه! انظر أين يقف مُقابلك، بصحة وعافية! ولدكَ الوحيد والعزيز! شقيقُكِ الوحيد، والذي يحبك يا بيرثا!».

لا شيء يمكنه وصف تلك اللحظة، حتى تلك الجنيات حارسات المنزل دهشت. الشّرف كله لهذه السّيدة الكريمة، الشّرف لضحكتها وابتسامتها! تلك اللحظة التي اجتمع فيها ثلاثتهم في أحضان بعضهم! كل الشّرف لقلبها المُحبّ لعثورها على هذا الشّاب. الشّرف لطائر الوقواق أيضاً - لِمَ لا! لخروجه من باب القصر المَهيب وإعلانه عن كل دقيقة تمضي.

بدخول الكافل إلى المنزل، دَهِش لحضور بعض الصُحبة الطيبة في الغرفة.

قال كاليب بحماس: «انظر يا جون، انظر هنا! إنّه ولدي، من جنوب أمريكا الذهبية، ولدي أنا! هو نفسه الذي قمتُ بتجهيزه وإرساله بعيداً! هو نفسه الذي لطالما كنتَ صديقاً له!».

صافحه الكافل بقوة باليد فقط، إذ إنّه شعر بأنّ هنالك شيئاً غير طبيعي. إنّ له نفس هيئة الرجل الأصمّ الذي كان في العربة، قال له:

«إدوارد! هل كان أنت؟»

قالت دوت: «الآن أخبره بكل شيء! أخبره بكل شيء يا ادوارد ولا تخفِ شيئاً. لأنّه ليس هنالك من شيءٍ يمكنه أنْ يجعلني أرى نفسي في عينيه أبداً مجدداً!».

قال إدوارد: «لقد كنتُ ذلك الرجل».

قال الكافل: «وهل أمكنك أنْ تتسلل إلى منزل صديقك القديم خلسةً؟ كان هنالك فتى صريح يوماً ما - كم سنة مضت يا كاليب، منذ أنْ سمعنا خبر وفاته وقد تم تأكيد الخبر؟ من دون أنْ يفعل ذلك أبداً».

قال إدوارد: «لقد كان هنالك يوماً ما صديق لي، كان والداً لي أكثر مما كان صديقاً. وهو الذي لم يكن ليحكم عليّ من نظرةٍ واحدة، أو على أي رجلٍ آخر. أنت هو ذلك الصديق، لذا فأنا متأكدٌ من أنّك ستستمع إليّ الآن».

نظر الكافل نظرةً خاطفة إلى دوت، التي كانت لا تزال بعيدة عنه ثم قال: «حسناً، هذا عادلٌ عدلاً كافياً! سأستمع».

قال إدوارد: « عليك أنْ تعلم أنني حين غادرت من هنا، عندما كنت لا أزال فتياً، كنتُ واقعاً في الحب؛ وهذا الحب قد أُعيد إحياؤه من جديد. لقد كانت فتاة شابة جداً، وهي التي كانت على الأغلب (وبإمكانك أنْ تقول لي) لا تدري بعد. ولكنني كنت مُدركاً لنفسي، وكنت أحبها حّد الجنون».

ردّ الكافل: «لقد فعلتَ! أنت!».

أجابه الآخر: «أجل لقد فعلت. والآن قد أعادت إحياءه في قلبي، وأنا متأكدٌ من أنّها فعلت».

قال الكافل: «يا إلهي، الرحمة! هذا أسوأ مما تخيلت».

قال إدوارد: «هذا الحب كان ثابتاً لها، وقد عدت وقلبي يفيض بالآمال؛ بعد الكثير من المصاعب والمخاطر، في أنْ أستعيد العهد القديم الذي كان بيننا. ولكن على بعد عشرين ميلاً، سمعتُ بأنّها لم تكن لي، وأنّها نسيتني تماماً، وأنّها وهبت نفسها لرجل آخر أغنى مني. لم يكن لدي مانع لعتابها، ولكنني أردت فقط أنْ أراها، وأنْ أثبت لها أنّ كل ما كان في قلبي كان صادقاً. كنت أتمنى بيني وبين نفسي أنْ تكون قد أجبرت على هذا الزواج، على الرغم منها ومن رغبتها. لكان هذا أكثر ارتياحاً، ولكنه ما يزال احتمالاً ضعيفاً، وهكذا عدت. عدت لأبحث عن الحقيقة، الحقيقة التي كانت سوف تبرئني مما كنت فيه. وهكذا، ارتديت شيئاً لا يشبهني البتة - أنت تعلم كيف، وانتظرت في الطريق - وأنت تعلم أين. لم تساورك الشكوك حولي، ولا حتى هي فعلت». وأشار إلى دوت، «حتى همست في أذنها عند المدفأة، وقد كانت تقريباً كالخيانة لي».

قالت دوت، وهي تتكلم عن نفسها: «ولكن حين علمت بأنّ إدوارد ما زال حياً وقد عاد، وحين علمت مقصده من القدوم، فقد نصحته بكل ما أوتيت من قوة بأنّ يبقي الأمر مخفياً، لأنّ صديقه القديم جون بيري بينغل، كان رجلاً منفتحاً جداً بطبيعته، ولكن أخرق جداً، أخرق بشكلٍ عام...»، قالت دوت هذا وهي نصف تبكي ونصف تضحك، «أنْ يُبقي الأمر بعيداً عنه، وهي

عندما - هذه أنا يا جون، عندما صدَّقتْ حبيبَه أنّه قد توفي، وقد تم تدبير زواجٍ لها من قبل والدتها والذي كان تحت عنوانٍ سخيف «خيرٌ لكِ»، وأيضاً عندما - هذه أنا مجدداً يا جون، أخبرَتْه بأنّهما لم يتزوجا بعد (ولكنهما يوشكان أن يتزوّجا)، وأنّها لن تكون سوى تضحية بلا فائدة إنْ فعلها، ولأنّه لم يكن هنالك أي حُبٍّ من طرفها، وحين كان يوشك أنْ يُصاب بالجنون حين سمع هذا، حينذاك هي -هذه أنا مجدداً- يمكنها أنْ تدخل بينهما، كما كانت تفعل من قبل يا جون، وحين يسمع إلى ما ستقوله حبيبته ويوقنُ بأنّ ما قالته -هذه أنا مجدداً يا جون- قد كان صحيحاً. وقد كان صحيحاً يا جون! وقد اجتمعا معاً يا جون! وهما يوشكان أن يتزوّجا يا جون، بعد ساعة تقريباً! وها هي العروس! وكان غراف وتاكلتون سيموت أعزب! وأنا امرأة شابة سعيدة، فليبارك الله ماي!».

كانت امرأة شابة لا تقاوم، إنْ كان هذا له علاقةٌ بالموضوع. لم تكن هنالك أي تهانٍ إلى هذه الدرجة مثل تلك التي أغدقتها على نفسها وعلى العروس. في وسط صخب المشاعر التي كانت تتأجج في صدر الكافل، فإنه وقف من مكانه بكل ثقة واتجه نحوها، ولكن دوت قد أوقفته بيدها وتراجع كما كان من قبل.

«لا يا جون لا! انتظر واستمع إلى كل شيء! لا تزرع بقلبك حباً لِي حتى تسمع كل ما سأقوله، كل كلمة. أعلمُ أنّه كان من الخطأ أنْ أخفي عنك سراً يا جون. أنا آسفة حقاً، لكنني لم أعتقد أنّ هذا سيشكل أي ضرر، حتى أتيتُ وجلستُ بجانبك على الكرسي ليلة البارحة. وحين علمتُ كلَّ شيء كان مرسوماً على وجهك، بأنّك قد رأيتني أسير مع إدوارد في غرفة التخزين، وحين علمت بما كنتَ

تفكر فيه أدركت أنّه كان خطأً فادحاً وتصرفاً طائشاً وغير مسؤول مني. ولكن يا عزيزي جون، كيف أمكنك التفكير هكذا؟ كيف؟»

المرأة المسكينة، عادت تبكي بحرقةٍ من جديد! كان جون بيري بينغل سيضعها بين أحضانه ولكنها لم تسمح له.

«لا تزرع حبي في قلبك بعد، أرجوك يا جون! ليس منذ زمنٍ طويل حتى الآن! حين كنتُ حزينة حول هذا الزواج المُدبّر يا عزيزي. لقد كان بسبب تذكري أنّ ماي وادوارد عاشقان شابان، وقد علمت بأنّ قلبها كان بعيداً كل البعد عن تاكلتون. أتصدق هذا يا جون، أتصدقه الآن؟»

أراد جون أنْ يستأنف الجلسة مرةً أخرى ولكنها منعته.

«لا، ابقَ مكانك يا جون، أرجوك! عندما أضحك منك، كما أفعل بالعادة يا جون، وحين أناديك بالأخرق وبالزميل القديم وبأسماء من هذا السياق؛ فهذا بسبب أني أحبك يا جون، أحبك جداً، وأستمتع حين أناديك بهذه الأسماء، ولن أراك قد غيّرت في احترامك شيئاً لأنك مَنْ جعل من الغد أفضل».

قال كاليب بقوةٍ غير عادية: «أووه! هذا رأيي!».

«وعندما أتحدث عن أشخاصٍ في منتصف العمر ومستقرين يا جون، وأتظاهر بأننا زوجان مملّان، والاستمرار بالكلام بهذه الطريقة، هذا فقط لأنني امرأة شابة وسخيفة يا جون، ولأنني أحب في بعض الأحيان أنْ أقوم ببعض حِيَل الأطفال، وكل هذه الأمور معك».

رأته قادماً نحوها، ولكن هذه المرة كانت ستتأخر عن ردعه بوقتٍ قليل.

«لا، لا تجبني، انتظر دقيقة أو دقيقتين أخريين إذا سمحت يا جون! ما كنتُ أريد أن أقوله لك بشدة، تركته إلى النهاية. عزيزي، وحبيبي جون؛ عندما كنا نتحدث تلك الليلة عن الصرصار، كانت هنالك بعض الكلمات على شفتيّ لأقولها، بأنني لم أكن أحبك بالقدر الكافي كما أفعل الآن، وحين أتيتُ إلى المنزل أول مرة كنتُ خائفةً بشدة من ألّا أستطيع أنْ أحبك، كما كنتُ أصلي وأدعو أنْ أفعل- كنتُ صغيرةً حقاً يا جون، ولكن يا عزيزي جون؛ في كل ساعة تمضي وكل دقيقة تمضي أحبك أكثر وأكثر، وإنْ كنتُ سأحبك أضعافاً مُضاعفة، فإنّ الكلمات النبيلة التي سمعتها منك هذا الصباح كانت كفيلة بذلك. ولكنني لا أستطيع إلا أنْ أفعل ذلك، (كل ما أعطيتك إياه) كل ما أنت تستحقه وأخذته مني منذ زمنٍ طويلٍ جداً جداً جداً، لم يعد لدي غيره لأعطيك إياه. الآن، عزيزي زوجي، أدخلني إلى قلبك مجدداً، ذلك هو منزلي الحقيقي، ويا جون، إياكَ ثم إياكَ أنْ تفكر في أنْ ترسلني إلى أي مكانٍ مجدداً!».

لن تبتهج أكثر من رؤية طرفٍ ثالث في أحضان من يحب. ركضت دوت إلى أحضان الكافل، لقد كان الشيء الأكثر روعة، وحُبّاً وتأثيراً يمكن لأي شخصٍ أن يراه. فرح الجميع بهذا التفاهم الذي سار على ما يرام، تيلي سلوبوي وهي تحمل الطفل بدأت تبكي من شدة الفرحة التي غمرتها، وذلك الألمُ الذي تغلغل في قلبها كان قد اختفى حين رأت سيدتها بين ذراعي الكافل. وبدؤوا يتناقلون

الطفل واحداً تلو الآخر كما لو أنّه سلعةٌ ما يفحصونها، ولكن الجميع سعيد ويزرع البهجة في قلوب بعضهم الآخر.

ولكن الآن، كانت هنالك أصواتُ عجلاتٍ مسموعة خارج المنزل، اقترح أحدهم فقال إنّ غراف وتاكلتون قد عاد مجدداً، وبسرعة ظهر الرّجل الأنيق وهو يبدو عليه الاضطراب والقلق.

قال تاكلتون: «ما الذي يفعله الشيطان هنا يا جون بيري بينغل؟ لا بدّ أنّ خطأً قد حدث، لقد كنت على موعدٍ مع السّيدة تاكلتون في الكنيسة، وأكاد أقسم إنني رأيتها في الطريق تأتي إلى هنا، أوه! ها هي! أستميحك عذراً يا سيدي، لم أتعرف إليك من قبل، ولكن قد تُسدي إليّ خدمة إنْ تركت هذه المرأة الشابة، فهي لديها خططٌ مسبقة لهذا اليوم».

أجابه إدوارد: «لا يمكنني فعل هذا، ولن أفكر بفعله!».

قال تاكلتون: «ما الذي تعنيه أيها المتشرد؟»

أجابه الآخر بابتسامة: «أعني بكلامي هذا، أنني لن أسمع لك بها، لأنك كنتَ خذلتَني. أنا أصمٌّ عن كل الصمت الذي حصل هذا الصباح، كما كنتُ أصمَّ عن كل الكلام الذي حصل ليلة البارحة».

تلك هي النّظرة التي سدّدها إلى تاكلتون، والتي بدأ بها!

أمسك إدوارد يد «ماي»، وخصوصاً الأصبع الثالث ثم قال: «أعتذر منكَ يا سيدي، هذه السّيدة لن ترافقك إلى الكنيسة. ولكن بما أنّها كانت هناك مُسبقاً هذا الصباح، فلربما تعذرها».

نظر تاكلتون بحقدٍ إلى إصبعها الثالث، ثم أخرج قطعة من ورقٍ فضي يحمل في داخله خاتماً كان بجيبه، ثم قال:

«آنسة سلوبوي، هل تمانعين أن تُلقي هذا في النيران؟ شكراً لكِ».

قال إدوارد: «لقد كان تخطيطاً مسبقاً للزواج، وإجباراً مسبقاً على الزواج، مما منع زوجتي من أنْ تَبقى معي، ولكنه اختفى الآن أؤكد لك هذا».

قالت ماي ووجهها يحمرّ خجلاً: «سيد تاكلتون هل تصنع لي معروفاً وتخبره بأنني لم أُكِنّ لكَ يوماً أيّ مشاعر، وأنه لم يصدر مني أي سوء تجاهك!».

قال تاكلتون: «أوه بالتأكيد، من غير ريب، من غير شك. إنّها محقة، إنّها محقة تماماً يا سيد إدوارد بلامر، على ما أعتقد؟»

أجابه العريس: «هذا هو الاسم بالتحديد».

قال تاكلتون: «آه، لم أكن لأميزك يا سيدي. تفاصيلك مُبهمة حقاً، وجهك دقيقٌ حقاً، هل أصنع لك دمية؟»

«شكراً لك».

التفت فجأة إلى حيث تقف السّيدة تاكلتون وزوجها ثم قال: «يا سيدة بيري بينغل، أنا آسف. لم تصنعي لي أي معروفٍ في حياتي ولكنني آسف على كل ما بدر مني. أنتِ أفضل مما اعتقدت. جون بيري بينغل، أنا آسف، أنت تفهمني وهذا يكفي. هذا صحيح تماماً، سيداتي وسادتي، بكلّ رضا وحب، عمتم مساءً!».

بهذه الكلمات التي قالها، حمل نفسه معها وغادر، وحين وصل إلى العربة بدأ يزيل الورود التي كانت تزين الحصان والعربة، وركل الحصان مرةً واحدة في أضلاعه لإعلامه بأنّ هناك تغييراتٍ في مسار سيره.

من غير ريب، فقد أصبح هذا اليوم مُخلداً في الذكرى إلى الأبد، بوصفه يوماً، على بيري بينغل وزوجته أن يحتفلا به في كل عام، مثله كمثل المهرجانات والأعياد التي تُقام. وفقاً لهذا، فقد بدأت دوت عملها في المنزل كنوع من التسلية، من غير شك فالآن هنالك مَنْ هو في المنزل ويجب أَنْ يكون نظيفاً جداً، وسرعان ما كانت يداها غارقتين في الطحين حتى المرفقين. ومن المهام الرئيسية، تنظيف معطف الكافل، وتوقيفه في كل مرة يقترب منها لإعطائها قبلة. هذا الزميل الطيب قد غسل الخضراوات، وقشّر اللفت، وكسّر الخشب ليشعل النيران، ووضع غلاية الحديد وفي داخلها المياه الباردة على النار، وجعل من نفسه شخصاً ذا فائدة في كثيرٍ من الأشياء. في حين أنّ اثنين من المساعدين المحترفين تم استدعاؤهم بجنون من مكانٍ ما في الحي، كما لو أنّها مسألة حياةٍ أو موت، وبدأ أحدهما يسابق الآخر فيتصادما في جميع المداخل والزوايا. واجتمع الباقون حول تيلي سلوبوي والطفل. تيلي، التي لم تكن يوماً بهذه القوة وهذا النشاط، قد أثارت بكلامها وتصرّفاتها إعجاب كل من كان في الغرفة. رأس الطفل، ما يزال كما هو، موضع تجارب للمس من جميع الفئات.

وكان هناك رحلة رائعة استكشافية على الأقدام لمعرفة أين هي السيّدة فيلدينغ، وأنْ تكون صبوراً جداً عند التعامل مع هذه المرأة

المُسنّة الرائعة، وحين تجدها، فعليك أن تعيدها بالقوة أو بلا قوة، وأنْ تكون مُسامحاً لها ومُحباً لها. وحين تم اكتشافها المرة الأولى، فلم تكن تقبل بأي شروطٍ مهما كانت، لأنها كانت تعيش لترى اليوم! ولم تكن لتقول أي شيء ما عدا: «الآن احملوني إلى القبر»؛ وهو الأمر الذي كان سخيفاً حيث إنّها لم تمت بعد، أو أي شيء من هذا القبيل.

ومن ثم، أتى والدا دوت، وهما اللذان أتيا بعد موعدهما مما أخافهما من أنْ يكونا قد أضلا الطريق. والسّيدة فيلدينغ والتي كانت دوماً تنظر إلى الأمور بمنظورٍ خاطئ وغير أخلاقي، كانت تعتقد أنّها هي من سيأخذ المكان بأكمله. في النهاية أتيا، زوجان ممتلئان، يمشيان معاً بسعادة ويبدو عليهما أنّهما من عائلة دوت، ودوت ووالدتها جنباً إلى جنب كانتا جميلتين عند النظر إليهما، كانت إحداهما تشبه الأخرى شبهاً كثيراً.

بعد ذلك، كان على والدة دوت أنْ توطد معرفتها بوالدة ماي؛ ووالدة ماي دائماً تقف على جاذبيتها وشموخها، ووالدة دوت لم تكن لتقف على شيءٍ سوى على قدميها الصغيرتين. أما بالنسبة إلى دوت العجوز - أقصد والد دوت، نسيت أنّه لم يكن اسمه الحقيقي. على أية حال، كان يصافح أياً كان بنظرةٍ من بعيد، ولكن عليّ أن أكون صريحاً معكم، لقد كان من أنواع الرّجال الذين ينجذب إليهم الجميع ويحبونه.

لم أنسَ دوت من كلامي، كانت تقوم بجهدها لجعل يوم ذكرى زواجها مميزاً، وتلك الإشراقة على وجهها انعكست من إشراقة قلبها الذي كان يفيض بالحب، وكان الكافل حولها يتكلم

معها تارة، ويُقبلها تارةً أخرى. أنْ يتم تفويت مأدبة العشاء فهو تفويت نصف العمر من الطعام اللذيذ والرّفقة الجميلة، وإنْ تم تفويت وقت الشراب في يوم الزفاف فهو كتفويت العمر كله.

بعد العشاء، بدأ كاليب يغنّي أغنية الوعاء الفوّار. كما لو أنّه رجلٌ قد أُعيد إحياؤه هذا اليوم، ويأمل أنْ يبقى هكذا سنة أو سنتين على الأقل.

وكالمتوقع، لا بدّ أنْ يحصل شيءٌ في النهاية.

سمعوا صوت دقاتٍ على الباب، دون أي إنذارٍ سابق دخل رجلٌ إلى الغرفة وهو يحمل شيئاً ثقيلاً فوق رأسه، وضعه في منتصف الطاولة، تحديداً بين المكسّرات والتفاح ثم قال:

«تحيات السّيد تاكلتون، ولأنّه لن يستفيد من هذه الكعكة، فهي لكم لتأكلوها».

ومع بهذه الكلمات غادر المكان.

كان هنالك تعابير دهشة على وجوه جميع مَنْ في الغرفة. السّيدة فيلدينغ ولاعتقادها أنّها سيدة فطنة وذكية ـ قالت إنّ الكعكة قد تكون مسمومة، وسردت قصة طويلة بكيفية تسميمها، والتي برأيها، قد أعاد فضلاً وتكريماً صغيراً للآنسات الشابات. ولكن تم تطهيرها بالتهليل والتزكية، ثم قطّعتْها ماي، بكثيرٍ من الابتهاج والسرور.

ولست أعتقد أنّ أحداً ما قد استطاع تذوق الكعكة حتى سمعوا طرقة أخرى على الباب، وإذا بنفس الرّجل يدخل ويحمل في ذراعه طرداً كبيراً بنّيّ اللون، ثم قال:

«تحيات السّيد تاكلتون، هذه بعض الألعاب من أجل الطفل. إنّها ليست قبيحة».

ومرةً أخرى قال هذه الكلمات وغادر المكان.

كانت هذه الحفلة بالنسبة إليهم مليئة بالدهشة والغموض، ما سرّ كل هذه الأشياء التي دخلت عليهم. وما أنْ خرج الرّجل وأغلق الباب من خلفه، حتى سمعوا صوت طرقةٍ أخرى على الباب، ولكن هذه المرة كان تاكلتون بشحمه ولحمه داخل المنزل.

قال صانع الألعاب وهو يحمل قبعته بيده: «سيدة بيري بينغل، أنا آسفٌ حقاً. أنا آسف أكثر مما كنت في هذا الصباح. لقد حظيت ببعض الوقت لأفكر في الموضوع بجدية أكثر. جون بيري بينغل! أنا رديء بتصرفاتي، ولكنني لا يمكنني إلا أنْ آتي إليك وجهاً لوجه والتعامل مع رجل مثلك. كاليب! هذه الممرضة الصّغيرة اللاواعية قد أعطتني تلميحاً والذي بإثره وجدت طرف الخيط الذي أبحث عنه، أنا أخجل حقاً من نفسي حين أتذكر كيف كنتَ أنتَ وابنتك تعاملانني بكل احترام، ومع ذلك فقد كنتُ أنانياً وجشعاً معكما. أصدقائي! الواحد والجميع، بيتي كئيبٌ ووحيد هذه الليلة، ولم يعدْ لديّ أي صرصار ليلٍ على الموقد إذ إنني أخفتهم جميعاً فهربوا. كونوا كرماء معي واسمحوا لي أنْ انضم إلى حفلتكم الجميلة هذه!».

لقد حضر إلى المنزل منذ خمس دقائق، أين كان هؤلاء الرفاق عنه! ما الذي كان يفعله طوال حياته، لم يسبق لي أنْ عرفت. أو ما الذي كانت تفعله الجنيات معه لتؤثر فيه بهذا الشكل!



همست دوت: «جون، سترسلني إلى المنزل الليلة، أليس كذلك؟»

لقد كان قريباً جداً من فعل ذلك! ولكن كان هنالك مخلوقٌ واحد غائب لتكتمل الحفلة، وفي طرفة عين كان هناك، كان عطشان

جداً من الجري هنا وهناك، ومن انخراطه في مساعيه البائسة للدخول من عنق الزجاجة. كان قد ذهب مع العربة إلى نهاية رحلتها، وهو مشمئزٌ جداً لغياب سيده. وبعد أنْ استقر في الإسطبل، فقد حان الوقت لتحريض الحصان العجوز للعمل لديه، أي أن يتمرّد على سيده. كان قد دخل غرفة تخزين زجاجات الجعة وجلس هنالك مقابل النيران. ولكنه حين رأى أنه ليس هنالك من جدوى لجعل الحصان يعمل لحسابه، فقد نهض مرةً أخرى وعاد إلى البيت فوق الموقد.

إدوارد، ذلك الزميل البحار كان يخبرهم بمغامراته، بالعجائب المختلفة التي رآها: الببغاوات، والألغام، والمكسيكيين، وغبار الذهب، عندما قفز من كرسيه فجأة واقترح أنْ يرقص رقصة إذ إنّ قيثار بيرثا كان معها؛ كان لها يدٌ عليه كيد كبير عازفي الموسيقى. دوت أخبرتهم بأنّ أيام رقصها قد ولت، وذلك لأن الكافل كان يدخن بغليونه وكانت تحب أنْ تجلس بجانبه في ذلك الوقت. وقالت السّيدة فيلدينغ نفس الأمر، إنّ أيام رقصها قد ولت، والجميع قال ذلك ما عدا ماي، التي لم تقل شيئاً، بل كانت على استعدادٍ لذلك.

وهكذا، بدأ إدوارد وماي الرقص وسط تصفيقٍ حارّ من الجميع، وبيرثا تعزف بكل حيوية على القيثار.

حسناً، إنْ كنتَ ستصدقني، لم يمضِ على رقصهما خمس دقائق حتى رأيت الكافل يضع غليونه جانباً ويقف جاذباً دوت من خصرها ناحيته، يرقصان وكأنّهما في مقتبل عمرهما، بكل هدوء ولطف، بكل شغف ورقة. لم يلبث تاكلتون أنْ رأى هذا حتى أمسك السّيدة فيلدينغ من خصرها وبدأ الرقص معها، وما أنْ رأى

السّيد دوت هذا حتى اشتعلت فيه روح الشباب والحماس، فوضع كأس الجَعة جانباً وأمسك يد السّيدة دوت وبدءا يرقصان معاً، وكأنّهما قد دبت فيهما روح الحياة من جديد. كاليب حين رأى هذا، وقف واستدعى الآنسة الصّغيرة تيلي سلوبوي لترقص معه، فأمسكها بكلتا ذراعيها وبدءا بالرقص.

يا للعجب! كيف استطاع الصرصار أنْ يقتحم الموسيقى ويبدأ بالتّغريد، يصفر، ويصفر! والغلاية بدأت الهمهمة من جديد!

ولكن ما هذا! حتى عندما اقتربتُ منهم ومن «دوت»، لأسمع أحاديثهم وأرى إشراقة وجوههم فإنهم اختفوا! لم يستمرّ أحد منهم، ولقد بقيت وحيداً... لم يبقَ هنالك سوى صرصار الليل على الموقد، ولعبة طفلٍ مكسورة ملقاة على الأرض، ولا شيء آخر.



THE CRICKET ON THE HEARTH

روايات

صرصار الليل على الموقد



هل ظهر لك يومًا صرصار ليل في منزلك؟ هل حاولت أن تستمع إلى صوت صفيره؟ ألم يخيَّل إليك يومًا أنّه يحاول أن يخبرك بمكنونات قلبك؟لربّما يجدر بك منذ الآن أن تستمع إليه، تمامًا كما فعل جون بيري. بيغل حين كان يوشك أن يرتكب جريمة قتل الغريب الذي رآه مع زوجته دوت، ولكنّ استطاع بفضل الصرصار أن يتدارك نفسه. هذا الصرصار لم يقتصر فقط على جون، بل ظهر لبيرثا الكفيفة ابنة كاليب حين كانت حزينة جدًا، وظهر للسيّد تاكلتون في منزله أكثر من مرّة، وظهر أيضًا لآخرين غيرهم يشتركون معهم في نقطةٍ واحدة هي مصاعب الحياة التي قد تودي بالشخص إلى الهلاك وقد توصله إلى النعيم. رواية من روائع الأدب الإنجليزيّ أدخلت العقل مع القلب في صراع كبيرٍ ينتصر فيه إمّا المنطق وإمّا المشاعر.

رولا النعيمي

ISBN 978-6589-09-909-3



الأهلية

الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2019
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962